الدفينة

رواية

محمد فيض خالد

دار وادي عبقر

للطباعة والنشر والتوزيع

بيت الإبداع .. وموطن العباقرة

wadiabkr.wixsite.com/wadiabkr

wadiabkar@gmail.com

www.facebook/ wadiabkar

www.youtube.com/ wadiabkr /

٠١٥٥٥٥١٧٤٢٦

ت : ٠١١٤٧١٢٨٦٢٥

ت : ٠١٢٢١٤٨١٨٥٦

بطاقة الكتاب

الدفينة

رواية

محمد فيض خالد

رقم الإيداع : ١٤٢١٩/ ٢٠٢٠

الترقيم الدولي:

٩٧٨ -٩٧٧ -٩٠-٧٥٧٠ -٩

الطبعة الأولى

عدد الصفحات : ١٠٤

تاريخ الإصدار : أغسطس ٢٠٢٠

المراجعة اللغوية والإخراج الفنى

دار وادي عبقر للطباعة و النشر

رئيس مجلس الإدارة

جابر الزهيري

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف، ولا يحق لأى دار نشر طبع ونشر وتوزيع الكتاب إلا بموافقة كتابية من الكاتب والناشر

الإهـداء

إلى القانعين..

مَن ارْتضوا قسمة الله فيهم.

إلى زمنِ الطيّبين.

إلى مَن يعتزّ بكلّ أصيل.

إلى أجدادِنا فراعنةِ وادي النيل،

بناةِ الحضارة.

محمّد فيض خالد

عزبة حسني (بحر يوسف) المنيا

أنا بوليت يا طبيب وظهر

معايا ألم وعايز علاج مرضي

وأنا من مدّة كنت صابر

وباتحمّل عذاب مرضي

لمّا شمتوا العوازل دول

زوّدوا مرضي.

(من مواويل الريف)

(١)

لا تزال جنباتُ المكان مُستغرقةً في سباتِها العميق، فقد اعتادتْ قرية الكوم هذا المشهدَ الذي تتحفّز فيه الطبيعةُ مُنتفضةً لاستقبال يومٍ جديد، تزيحُ عن الحقول جمودَ ليله الجاثم. كلّ شيء حتّى الآن في سكونِه القاتل، لا تسمع في هاته السّاعة سوى نباح الكلاب تتوارى تحتَ الجُدر القديمة من بردِ الصّباح، تئنّ صغارُها بين أقدامها، وصياحُ الدّيكة في تكاسل وترقب، ونهيقُ الحمير التي تعوّدت أن تبكّر للحقول في هذا الصباح، وأبخرة خالطتها أدخنةُ الأفران والمواقدِ تنبعثُ سحبُها مفيدةً فوق البيوت، وهكذا الرّيف يئنّ مصروعًا ما بيْن عقدةِ الليل ويقظةِ الصّبح، إلى أن يأذنَ الخالق بميلاد شمسِه.

حتّى تلك البيوت القصيرة المبنيّة باللّبن استسلمتْ حيطانُها في خضوع، اللّهم إلّا بيت شيخ البلد الحاجّ هنداوي أبو إسماعيل، الذي ورثه عن أبيه تاجر الغلال، فيقف في شموخ، تتحدّى جُدرانه الحُمر ما عجزَ عنه سواه.

انتفضتِ الدّورُ تزيح عنها برودةَ الظّلام، كلّما تلألأت شمسُ النهار ساطعة، تلتقطُ أنفاسها، ترفسُ- بغضب- الرطوبةَ التي أكلتْها، وشيئًا فشيئًا تتهيّأ لاحتضان ما تجود به ساعات النّهار القادم من دفء، قانعة بهذا الرّزق الذي ساقه اللهُ لها كلّ صباح.

كلّ شيء حولَ عزبة القوم، وفي الزّمام كلّه، يحاول في إصرارٍ أنْ يجدَ لنفسه مكانًا يحتضنُ فيه بوادرَ الصّباح الجديد، تزهو ثغورُ حقوق البرسيم وعيدان القمح، حتّى طيور أبي قردان ها هي تتراصّ راقصةً، وصغارُها فوق أشجار الجمّيز العالية، مستسلمة لخيوطِ الشّمس التي عرفت طريقها لا تخلفه.

وبينما تتمدّد عرائسُ الصّباح الفتيّة قادمةً في تأهّبٍ من فوق الحقول المحيطة بالقرية؛ تسارعُ لتأخذ مكانَها المعتاد، ناثرةً ضفائرها الذّهبيةَ فوق قمم أشجار الكافور المحازية للجسْرِ الكبير؛ وإذْ بصوتِ استغاثةِ إنسانٍ يقطع هذا السكون، يجلجلُ في لهفة: يا خلق هووو... حدّ يغيثني من المُفْتري، منّك لله يا شيخ.. لا تجد إلّا مَن يُجيبها متوعّدًا: والله لاقطع رأسك يا بوز الفقر، أنت امرأة لا تُطاق، لا بدّ أنْ أرسلك حالًا لبيت أبيك عند الظّهيرة؛ لتموتي من الجوع بين إخوتك، إنّكِ لا تستحقّين نعمة الله التي يحسدك عليها نساءُ الكوم.

خفتَ الصّوتُ القادم من قلبِ الزّقاق فجأة، وسطَ البرودة المتكدّسة فيه، والتي لم تؤثر فيها حرارةُ الشّجار، ليغيبَ المكانُ في سكونه، ويبتلعُه صمتُه الطويل حتّى يأذن داعي الصّباح، وتنساب الحياةُ بشكلٍ تامّ وكأنّ شيئًا من أمر الليل لم يكن.

وبعدَ دقائقَ كان قرصُ الشّمس الأصفر الصّافي قد ولد منفلتًا برشاقة في صفحة السماء، لتبدأ الخلائقُ تسيح في مناكبِ الأرض؛ يضربون فيها وراءَ أقدارهم المحتومة وأرزاقهم المقسومة.

لكنّ أحدًا لم يلْقِ بالًا لحديث الصباح الصّاخب، الذي دار بين رسميّة وزوجها جايل حلّاق الحمير، يبدو أنّ معاركهما لا تنتهي، فشجارُهما أصبح عادةً تستيقظ عليه القريةُ كشمس نهارها، منذ أنْ جاء جايل برسميّة من نجع أبي ليفة عروسًا صغيرة ابنة السادسة عشرة، حين رآها لأوّلِ مرّة وهو يقصّ شعْرَ حمار الشّيخ مدكور، شيخ النجع؛ فتعلق بها وأحبّها لرشاقةِ جسمها وقوّة بُنيانها وهي تحمل جوالَ الذّرة اليابس، والذي لا يقوى عليه أعتى الشّجعان.

يداومُ باستمرار على المكان يسترزق بما تجودُ به أيادي الزّبائن، وإن كان في أغلب أحْواله لا يشترط النّقدية في تعاملاته، فهو يرضى بعطاياهم وإنْ كانت قمحًا أو ذرة، أو حتّى أقراصًا من الخبز والجبن، وفي مرّاتٍ كثيرة الزّبد والتمر، هو لمْ يدقق فيما يتقاضاه، فما يهمّه أن يعود مجبورَ الخاطر يحمل ما يسدّ به فمَ زوجته اللّحوحة، ويقذفه في جوف أولاده الصّغار، فسميّة تقف في حلقِه مثلَ الشوكة لا يلين لها جانب، لا يعجبها حاله المتعثّرة، ولا يروق لها كسلُه الزّائد، وتقاعسه عن تحصيل رزقه والسعي وراءه كبقية أبناءِ القرية من الجيران، سواء مَن خرج منهم في التّرحيلة للعمل في مزارع البطيخ، أو سافرَ الفيوم في ترحيلة الشّيخ محجوب لتطهير المصارف من ورد النيل.

تعايرُه أنّه لم يرثْ عن والديه إلّا الفقرَ والتّنبلة، وأنّ حياة الضّنك لن تبرحه مادام على حالِه تلك، تمامًا كداره القديمة المُتهالكة التي

يتساقط سقفُها كلّ شتاء مع رطوبة الجوّ وليونته، تعيب فيه تراخيه ولا تلم تذكّره بين الفينة والفينة بماضي أسلافه البائس، وفقره المدقع، وتقارنُ حالَه بحال غيره من الأنداد، الذين تمرّدوا على وضعهم وثاروا على العوَز، فمنهم مَن سافر للعراق، ومنهم مَن هاجر للقاهرة، ومنهم مَن وجد لنفسه طريقًا ملتويًا يسلكه لا يعلمه الناس، يدرّ عليه ربحًا مضمونًا، تتحدّث به داره الجديدة، وأساورُ الذّهب التي تبرق في ذراع زوجته، فالناسُ مع الفقر لا يعنيها مِن أين تحصل على المال بقدْر ما يعنيهم المال نفسه.

قالت له يومًا وهي تندبُ حظّها العاثر مُفتعلة إشكالًا:

- انظرْ إلى حال عوض زيدان، أين كانَ.. وكيف أصبح، كان شريكَك على العِدّة ؛ يحلق الحمير بكيزان الذّرة، والآن رزقٌ واسع، وبيتٌ عامر من وَسَع، ودكان مليء بالبضاعة مِن كلّ صنف، وتغيّر حالُه من الواد عوض الحلّاق لعين مِن أعيان البلد على سنّ ورُمح، وامرأته أمينة ابنة حسن المسحراتي بائع الملوحة، تسير في القرية شامخة في أنفةِ الكبار، وكأنّها امرأة العمدة واللّا بنت بارم ديله، تحمل من الذّهب في يديها ورقبتها ما يكفي دكّان صائغ، وبيتها يفيض بخيرات الله، واسعة يرمح فيها الخيل، شِرْحه وبرْحه، أمَا آن لك أن تنظر في حالك؟! أنْ تعيد حساباتك ثانية، الدّنيا تدور من حولك ولا تقف على حال، وأحوال المخاليق تتغيّر، واللّا هتفضل محلّك سِرّ!

لقد سئمت هذه التّنبلة، افعل شيئًا لأجل خاطر عيالك المساكين، سامحك الله يا أبي زوّجتني من عَويل لا يحسب للدّنيا حسابًا.

نظرَ إليها صاحبُنا وأطلق ضحكةً مُجلجلة، يخنقها البلغمُ المتحجّر في رقبته منذ عقود، منذ أن تعلّم شربَ الدّخان وبلْعَ الأفيون مع الأسطى زينهم- معلّمه- الذي جرّه لهذه الصنعة، بعد أنْ شغله مع والده في صناعةِ الحصير، فورثها عنه كرْهًا كما ورث العدّة والزبائن بعدَ موته غريقًا في بحر يوسف.

اعتدلَ في جلسته على عتبة الدّار يحدّق بعينه في المرأة التي لم تكفّ عن البرطمة، وبدأ ينفثُ دخان سيجارته، لملمَ طرفَ ثوبه الباهت بعد أنْ ألقى ما تبقّى في قعر كوب الشاي في وسط الشارع، وقال متحدّيًا:

- إنّك تكذبين يا امرأة، وكذبك فاح ووصلَ النّرعة الكبيرة، هل نسيتِ؟! فلأذكّرك للمرّة المليون، ألم تعرضي عليّ نفسَك يومًا؟ هل نسيت يومَ تعلّقت في رقبتي عند الجرن، وبكيتِ بملء العين متوسّلة بسيدي الفولي أنْ أفاتح والدك في أمْر زواجنا، وقلت بالحرف الواحد: هو لنْ يعترض عليك، تقدّم له وانتشلني من حياةِ الجوع، إنّه سيتخلص من بطن من البطون الجائعة التي لا يقدر على سدّها، فكلّ شيء كان برضاكِ أيتها الملعونة. ورغمَ حدّة لسانك الذي يشبه المَبْرد، لكنّني أحبّك يا منية النفس العليلة، حبًّا يضاهي حبّ نجوم السيما.

وأطلق من صدره ضحكةً طويلة غابَ فيها نفسُه لآخر مدى يغالب احتباس أنفاسه وسط سحابةٍ من البلغم الكثيف، حتّى اغرورقتْ منها عيناه، ثمّ تقدّم إليها يحتضنها بين ذراعيه الطّويلتين، بين تمنّع مُصطنع منها، حاولت تحاشي سخفه وضحكاته المستفزة التي لا تتقطّع كأزيز صدره الذي يشبه محرّكَ ماكينة الري، تخلّصت منه أخيرًا لتجلس بجوار الكانون توقدُ تحت قِدرٍ نحاسي كساه الصّدأ، وهي تهمهمُ بكلمات غير مفهومة، على ما يبدو أنّها شكايةٌ من حال زوجها وحظّها المائل، بادرها جايل بلكنة متحمسة وهو يؤشر بعودِ الدّرة اليابس:

- أمّا بخصوص عوض زيدان، فأنتِ تعرفين كما يعرف الجميعُ قصّته الواضحة وضوح الشّمس، فأمر الدّقينة والمساخيط ليس ببعيد، وهذا شأن كلّ مَن هبّ ودبّ من أثرياء البلد الذين ظهروا لنا فجأةً بين يوم وليلة، وإلّا فمِن أين هبطت عليهم هذه الثروة، وأغرقوا في المال المفاجئ بعد أنْ كانوا فقراء غلابة، أكلهم الجوع هُم وآباؤهم، هؤلاء ليسوا أكثر منّي نباهةً ولا خبرة، اللّهم إلّا الحظّ الذي أوقف في طريقهم تلك المساخيط الملعونة، فاكتالوا من المال كيلًا وفيرًا، يحملوا من الدّفائن ذهبًا، آه لو صادفتني تلك السّراديب! هل سأظلّ كما أنا جايل حلّاق الحمير؟ لا.. لا.. حتمًا سيتبدّل حالي ألف درجة؛ سأصبح وجيهًا من الوجهاء، ولمَ لا!؟

وغابَ في فكرٍ عميق وكأنّه في عالمٍ آخر انفصل عمّن حوله، فلم يعبأ بنظراتها الحادة التي أمطرته بها دون توقف.

رفعَت رسميّة حاجبَها الأيمن كعادتها عندما لا ترضى عنه، مصمصت شفتيْها السّمر بعنف، ثمّ أدارت وجهها في صمت، لتعاود تحريك المغرفة في إناء العدس النحاسي المجَنْزر، وزّعت نظراتها ما بينه وبين الوعاء أمامها، كان صاحبنا لا يزال مشغولَ الفكر لا يحرّك ساكنًا، اللّهم إلّا تحريك أصابعه يرفع بهما سيجارة يمتصّها ثمّ يعيدها ثانية، لم يفقْ من غلفته إلّا بعد أنْ لسعته فضلتها، ليلقي بها بعيدًا عنه، ثمّ مرّر يده فوق جبينه الشّاحب وشرع يهرش رأسَه بعنف وهو يرجع طاقيتَه الصفراء المهترئة التي توسطت رأسَه المدبّب كالفأس للخلف، أخذَ نفسًا عميقًا قبل أن يميل بجسده من فوق عتبة الباب، ويطلق صوتًا عاليًا من تثاؤب مُثقلٍ بالهمّ، رمى ببصره داخل الدار الضيقة، كانت رسمية قدِ انتهت لتوّها من طبختها لتنادي صغارَها الذين اعتلوا أسطح البيت في لعب منذ الصّباح.

قفزَ جايل فجأة كالقردِ مرّة واحدة ليتوسّط الجماعة التي تحلقت من حول الطبلية، لم تنقطع نظراتُ المرأة المشحونة بالحنْق على صاحبها، تجاهل تمامًا نظراتها الغاضبة في تحدٍّ وتصميم، وبين اللّقمة واللقمة تلقي بكلماتِها القاسية في وجهه الذي كساه البرود، تمامًا كلوح الثّلج، مدّت يدها بوهنٍ تدفع اللقمة في فم ابنتها الصّغرى، وهي تتململ في جلستها وقد عوجتْ فمَها، وقالت بضجر:

- ناس لها اللّحم والفراخ، وناس لها العدس والمشّ اللّي يحرق الجوف، والبصل الحرّاق، متى يتوب علينا ربّنا، ونتحرّك وراء معايشنا زيّ خلقه، يوم شغل وعشرة نوم، أظنّ مُنتظر الميراث؟ أم تراك تعشّم نفسك بمغارةِ علي بابا اللّي هتفتح لك؛ علشان تغرف منها علشان توكّل كوم اللّحم ده؟ الكسل يجيب الفقر وخراب البيوت وعطل الحال.

حملقَ فيها وكأنّه يراها للوهلة الأولى، ثمّ دسّ لقمةً داخل فمه العريض، وأتبعها بنهشة من بصلةٍ كبيرة كان قد دشّها بيده على الأرض بضربة واحدة، وقال باستفزاز:

- مغارة علي بابا! لقد قرأتِ ما يخطر ببالي يا ستّ الهوانم، هي مغارة علي بابا مفيش غيرها، نعم هيّ، وأقلّ منها يعني؟! أنا لا يملأ عيني ولا يعبّئ جيوبي إلّا مغارة كمغارة علي أفندي بابا، وهل زوجك أقلّ من أولئك الأوباش؟ لكن الموضوع يحتاج لخطّة مسبوكة وتكتيك، وساعتها نصبح من أسياد النّاحية كلّها، مش كده واللّا إيه يا رسمية هانم؟!

اتّسعت عينا المرأة وهي تحدّق فيه تنهش طلّتها الرجل، مسحته بنظرةٍ طويلة مريبة من وجْهها الشاحب، ثمّ مضت تلوكُ لقمتها بأسنانها المتآكلة، وهي بين الحين والحين تشيعه بنظرها، وكأنّها تراه لأوّل مرّة، أدارت وجهها عنه أخيرًا بغيظ تمسح بكلتا يديها فوق

ظهر ابنتها الصّغرى، وتهشّ عنها الذباب، ثمّ مدّت يدها تجمع فتات الخبز المتكسر فوق الطّبلية وهي تردّد في وجوم:

- أسمع كلامك اصدّقك، أشوف أمورك استّعجب، وده يبقى أصله إيه؟ وهي المغارة هتيجي بروحها وتقولّك والنبي اغرفْ منّي يا سي جايل، وأنتَ راقد فوق حصيرتك يا سبْع الرّجالة، وهل سأصبح هانم بالكلام المعسول والأمنيات، أهلينا قالوا في المثل: اسعى يا عبد وانا أسعى معاك، اتركْ أوهامك، اتّق الله في نفسك وعيالك، واذهب لعملك واخزِ الشّيطان. الصّبر من عندك يا ربّ العالمين.

لم يجبها بكلمةٍ واحدة، بل ظلّ في صمته يجوب بنظره بين الجدران، ويمدّ طرف عينه ناحية غرفة داخلية مظلمة كست خيوطُ العنكبوت واجهتَها، مدّ يده وهرش رأسه المدبب بعفويّة دون أن يزيل عنها طاقيّته، كانت رسمية قد فرغت هي وأولادها من أكلهم، وشرعتْ في جمع الأطباق وكنْس الطبلية من فُتاتها المتناثر، وبعد دقائق من انزوائها في جانبِ البيت، عادت إليه تحمل كوبًا من الشّاي المغلي، يقطر سواده ليغطي مقبض يده الصّاج، وضعته بجوار صاحبنا في صينية صدئة متآكلة الحواف، وهي تتعجب من شرودِه دون أن تنطق بكلمة، وقبل أن تهمّ مُنصرفة أمسك بالكوب ورشف منه رشفة خفيفة دونَ كلامٍ على غير العادة، وألقاه من يده وبدأ في وصلة الصّراخ، بعد أنِ انفكّ عنه تفكيرُه الذي سبح فيه طويلًا، وقال بعصبيّة:

- ما لك يا وليّة يا مخبّلة أنتِ؟! الشّاي ماسخ زيّ السّم، مُرّ حنضل، مش كفاية أيامك مرار في مرار.. ناقص الشّاي كمان، فين السّكر يا ستّ هانم؟ ألف مرّة نقول الشاي سكر زيادة، جاك الغمّ.

بادرتْه بضحكةٍ مفتعلة وهي تتراقص، بعد أنْ وضعت يديها حول حصرها اليابس وبدأ تغمرُه في تغنّج باهت، ململت المرأة جسدها النّحيف وهزّته، ولكنه لم يتحرك من يبوسته، فبدَا متحجّرًا وكأنّه قطعة من الصخر، وقالت بصوتٍ ناعم ماكر:

- سامحني يا سعادة البيه المأمور، نسيت اقتح جوال السّكر اللّي وصل امبارح، ألا تستح مِن نفسك، ألا تعلم أنّ آخر حبّة سكر ذابت في كوب الأمس، لقد انتهى السكر والأرز والصّابون.. وووووووو.

وقبلَ أن تكمل حديثها المستفزّ تقدّم نحوها منفعلًا، واضعًا يده على فمها وصاح بشدّة:

- المعلومة وصلت، ولا داعي لكثرة الحديث، تتدبّر إن شاء الله.

تحرّكت رسمية في أسى وحسرة، وجلست بجوار الحائط، وجعلت تنتحب وعينها تجود بالدّمع، مسحت عينيها بطرفِ شالها الأسود، ثمّ ضربت فوق فخذها، وقالت:

- إلى متى يا ربّ كلّ هذا العذاب مع رجلٍ لا يقدّر المسئولية، ولا يحْسب للزمن حسابًا، ولماذا يكون نصيبي أنا وأولادي دون بقية الناس الجوع والضّنك؟

لم يتحمّل كلامها الموجِع، وبعفويّة نفض جلبابَه الأزرق الباهت، ومطّ بوزه، وبصق بعنف من فمِه على الأرض، وفتح الباب بقوة، ثمّ اندفع خارجا إلى الدرب، وهو يبرطم بكلمات غير واضحة، لتعود المرأة ثانية إلى بكائها وقد اجتمع صغارها من حولها، يشاطرونها آلامَها عساهم أن يخفّفوا عنها.

(٢)

اندفعَ جايل في الدّرب بلا اكتراث، أسلم ساقيْه للرّيح سالكًا طريقه ناحية المقهى، المكان الوحيد في القرية الذي يجدُ فيه راحته، وقف على مشارف المكان يطالعُ الحضور، بدَا المكانُ مزدحمًا على غير عادته، تتعالى أصواتُ زبائنه متداخلة بلا ضابطٍ في نقاش حاد، همهمةٌ وعراك، وفي أحيان شجار وتلاسُن، بدَا القوم وكأنّهم تعاهدوا الحديث في وقت واحدٍ، ودونَ تمهّل، اقترب شيئًا فشيئًا بعد أن ألقى ابتسامةً باردة وزّعها فوق الوجوه التي لم تكترثْ أصلًا لحضوره، اتّخذ مكانه أخيرًا مندسًّا وسط الجمع الصاخب، وضرب كفًّا بكفّ مُناديًا صبي المقهى أبا خطوة الذي تقدّم منه محيّيًا في ثيابه الرثّة المتواضعة، حيّاه بعبارةٍ موجزة، ولكنّ الفضول يأكله، قال له:

- تأخّرت اليومَ على غير العادة يا معلّم جايل، لعلّ المانع خيرٌ، طلباتك يا سيد المعلّمين.

لكنّ صاحبنا كان مشغولًا بما يدور مِن حوله، جلبةٌ مجلجلة لا تنقطع فيها الأصوات، على الرّغم من تجاهلهم للقادم، مالَ على كرسيّه متململًا علّه يتصيّد ما يتناثر من كلام القوم في فضول، ولمّا عجز في مسعاه آثرَ الصمتَ، فقد يمكنه أن يظفرَ بشيء يرضيه، لكنّه فشل في دفْع فضوله الذي انْساق وراءه بلا وعي، فحرّك مقعدَه وزحزحه قليلًا ناحيتهم علّه ينجح في أنْ يلجَ في النقاش إنْ حانت الفرصة.

وبعد دقائق بدَأ النّقاش وقد علت وتيرتُه وحميتْ ثورتُه، انخفض الصوتُ فجأة وكأنّهم تنبّهوا لجرسه العالي، بعد أن غابت أصوات الزّبائن وسط هذه المعمعة، حتّى المارّة في الشارع توقفوا لاستطلاع ما يجري داخل المكان.

التقطَ صاحبُنا- على ما يبدو- طرفَ الخيط بعد معاناة، ابتسم ابتسامة خبيثة، انفرطت معها تجاعيدُ وجهه ونتوءاته، مدّ يدَه يمرّرها على وجهه، وأمسك أرنبة أنفه المقوس، وشرع يصفّق ثانية بقوّة ليتقدّم نحوه أبو خطوة وهو يمسح يدَه المبلّلة في جلبابه الرّث، مال برأسه عليه قائلًا:

- طلبات السّيادة؟

وضعَ جايل رجْلًا فوقَ أختها، وقال وهو يعدل ياقته بتنطّع:

- الجوزة يا واد يا أبو خطوة. عجّل بها فرأسي يدور منذ الصّباح، هيّا.

تحرّك صبي المقهى مبتعدًا ليعود صاحبنا إلى فضوله، زحزح كرسيّه ناحية القوم دفعة واحدة وهو يهزّ رأسَه المدبّب بتلطّف، وقد وجد لنفسه مكانًا حُشر فيه، بشّ لأحدهم وقال متصنّعًا الودّ:

- كيف حالُك يا سالم يا ابن خالي؟ وكيف حال خالي وأولادك، وخالي عبد القادر بلّغه سلامي الخصوصي.

ردّ عليه الرجُل باقتضاب، وقد لاح على وجهه انزعاج، تحرّك في مكانه حركات قليلة يتململُ في جلسته، غابَ في تفكير عميق منعزلًا

بعضَ الشيء عن أحاديثهم، لكن جايل لم يفلتْه، ظلّ يتنمّر وكأنّه يعدّ عليه أنفاسه، ويتحسّس دقات قلبه، مدّ يده وتناول الغابة وبدأ يسحبُ من الجوزة سحباتٍ طويلة، ثمّ ينفثها بقوّة في المكان، ليغيب هو الآخر في تفكير مفاجئ منقطعًا عمّن حوله، مُكتفيًا بسحابة الدّخان التي تتحرّك من حوله، لكنه ظلّ يحدق في صاحبه، قال في نفسه: لقد قالوا كلمة الحفر.. الحفر! إذًا فالحكاية- ولا بدّ- كبيرة، طالما هناك حفر، لا بدّ من معرفة ما يدور بالضّبط. هيّ الدفينة، نعم هي، أقطع ذراعي ورقبة رسميّة إنْ لم تكن الحكاية حكاية المساخيط، هي الوحيدة التي تلهب الحماس بهذا الشّكل، ماذا جرى لك يا بلد انقلبتِ من فوق لتحت! ماذا تفعل يا جايل؟

انقطعَ الحديث فجأة وكأنّ شيئًا لم يكن، أشار صاحبنا بيدِه بعد أن عاد بوعْيه ثانية لمن حوله، فقاموا قومة رجُل واحدٍ دون أن ينطقوا بحرفٍ واحد، ولا حتّى طلبوا الإذن من جايل، الذي شيّعهم باستغراب شديدٍ يمطرهم بنظراته الحادّة حتّى غابوا عن نظره.

فارَ الدّمُ في رأسه فلم يتمالك أعصابه، ألقى في إثرهم كوب الشاي ثمّ أخذ يكيل لهم الشتائم في عصبيّة وفوران، ثمّ أردف قائلًا:

- لعن اللهُ المال الذي يجعل قيمةً لأراذل الناس من الهلافيت، منذُ متى وهؤلاء من عِلْية القوم، أو يحسب لهم حساب، هل تناسوا تاريخَهم البائس، إنّ فأسَ جدّك أيّها الصعلوك لا تزال مركونة وراء باب المندرة.. آه يا بلد.

عاد يسحبُ أنفاسًا متلاحقة، وفي توتّر من الجوزة، عندها انشقّت الأرضُ عن صبي المقهى، شرع في جمْع قطع الزّجاج المتناثر من حوله، هالَه حالُ جايل وانفعاله وثورته التي لم يعهدْها من قبْل، اقتربَ منه وهو يتلفّت يمْنةً ويسْرة في توجّس، وقال هامسًا:

- لقد كانوا في انتظار وصول شيخ مغربيّ، أتوْا به من بلاده، قالوا بأنّه ضليع في التعامل مع الرّصد والخدّام الموكّلين بالدفائن والخبايا، على ما يبدو أنّ موعد فتح الدفينة الكبيرة قد اقترب، لقد حاولوا كثيرًا ولكنّهم لم يُفلحوا، وهُم الآن في طريقهم لاستقباله عند مدخل البلد، أرزاق ومقسّمها الخلّاق يا معلّم جايل، لقد فتحت الأرض بطنَها لعبد الرحيم وإخوته دونَ النّاس ليغترفوا منها بغير حساب، من يوم ذهابهم لدفن والدهم في مقابر البلد، هل تعلم ما جرى ساعتها.. فتحت لهم طاقةُ القدر يا صاحبي.. حظوظ.

فتحَ جايل عينيه الجاحظتيْن بقوّة، وشدّ طرف أذنه الطويلة وقال في فضول:

- وماذا جرى.. ها؟

اعتدلَ أبو خطوة في وقفته، وهرش في جنبه بعنف، ولكنّ عينَه ظلّت تلاحظ مدخل المقهى في تحفّز قائلًا:

- لقد عثروا أثناءَ حفر قبره على مغارةِ علي بابا، دهليز طويل مليء بالذهب والياقوت وأكوام من المساخيط على كلّ شكل ولون، باعوها

للخواجة ماركو في أسيوط، جاي خصيصًا فحملها في عربته، ولا مِن شاف ولا من دري.

لم يشعرْ جايل بنفسه حين جذبَ صاحبَه من كمّه جذبة واحدة فأجلسه إلى جواره، وكأن حديثَ الرّجُل أثار- دون سابق إنذار- شهيّتَه، عاجله في لهفة:

- هل يُعقل هذا؟! كنت أعتقد أنّ أمر الدفائن وشغل الكنوز التي يتحاكى عنها الناس مجرّد هلاوس مِن نسج خيال الفقراء المرضى معْدومي الحيلة، الذين تعلّقوا بالوهْم، ورنّ المال في عقولهم بعد الجوع، هل يُعقل ما تقول!؟

هزَّ أبو خطوة رأسَه في ثقة، وقد فتح فمَه ضاحكًا في دهاء، ثمّ مدّ يده فامسك بكوب الشاي وابتلعَ فضلةً في قعره، وعاجلَه مؤكّدًا:

- نعم وأكثر من هذا، فصاحبنا المغربي يستطيع تسخير المردَة، فيجعل الأرض تكلّمه وتجيبه بما في باطنها، إنْ كان ذهبًا أو فضّة، حجرًا أم نحاسًا، وتعلمه في رمشة عين مقدارها بالضّبط، وعمق الحفرة التي تلزم، إنّها مسألة عويصة يا صديقي.. أتركك الآن ولنا حديثٌ آخر بعد أن نغلق المقهى.

لازمَ جايل مكانه فلم يبرحْه، وعيناه تتابع في شغف أبا خطوة الذي ذاب وسط الزّبائن يلبّي طلباتهم في خفّة، لم تتزحزحْ أحرفُ صبي المقهى من رأسه، انشغل بحكاية الشيخ المغربي القادم، خامرَ الفضولُ عقله الذي كادَ يطير من حديثِ صاحبه، ولولا الخوف لهرْوَل

خلفهم، لتسلّل سريعًا وراء القوم، لكنّه فضّل البقاء يتقلّب معه على جمر الانتظار طالما كان خيطُ الكلام بيدِ أبي خطوة. أمسك الجوزة وأخذ يمصّ غابتها ويطلق دفعات من دخّانها الأبيض الزاهي وقد التفّ خيوطًا من حوله، غابَ بين طيّات الفكر وسحب الدخان يقلّب الكلامَ في رأسه، وبين الفينةِ والفينة يشيع من طرفِ عينه على فترات متباعدة مدخل المقهى وفتى المقهى، أخرجَ في الأخير تنهيدةً طويلة من صدره الذي أوشك أن ينشقّ، وقال:

- يا خبر الوقت بفلوس بعْد شويّة يبقى ببلاش، ماذا وراءك يا قهوجي الغبْرة، وهل سأجد معك الدّواء؟

وبعدَ مدّة انفضّ السّامر، وغادر القومُ المكان، شرع أبو خطوة في ترتيب المكان، انطفأت نيرانُ الفحم الملتهبة، وأخمدت مواقد الكيروسين، غير أنّ فكر جايل لا يزال كالبركان لا يهمدُ يتتبّع اللغزَ المحيّر. سحب سحبةً بفتورٍ من الجوزة، وانساب من فمِه الدخان بلا وعي متراخيًا كثعابين هزيلةٍ لا تعرف وجْهتَها.

كان أبو خطوة قد انْتهى من عمله، وجلس إلى جواره يفكّ أكمام جلبابه المنطوية، نظر جايلُ للجالس أمامه في تحفّز يكادُ يخرج الكلامَ عنوةً من فمه، ابتسم أبو خطوة ابتسامة ماكرة، ومدّ بصره ناحية علبة السّجائر المُلقاة فوق الطاولة، ودون كلفةٍ استلّ واحدة بيده، كانت الأخيرة على ما يبدو، لحقه جايل بعود الثّقاب المشتعل، وقال في عجلة:

- ها.. ما القصّة والخبر؟ أريدك أن تحكي التّفاصيل بهدوء، فأنا بايت للصّباح.. اتّفقنا؟

أدارَ أبو خطوة عينه في المكان، واقترب منه هامسًا:

- العزبة تعوم على كنز كبير يا جايل يا ابن عمّي، كنز لو فتح لأغرق بخيره أهل المديرية بحالها.

بلعَ جايل ريقه الذي أخذ ينسابُ من جانبي فمِه بصعوبة، وأردف بصوت مبحوح:

- كنز تحت بيوتِ العزبة بتاعتنا، معقولة الكلام ده؟! إذًا فأحاديث الناس عن الدفينة حقيقة وليست خرافة، لكن هل حدّد مكانها بالضّبط؟ وأين البوّابة.. والذي منّه؟

مطّ أبو خطوة بوزه مُستسلمًا وهو يطلق من بين أسنانه الصُّفر المتآكلة بقايا دخانه، ووضع يدَه فوق وجهه، ثمّ ساد صمتٌ استغرقا فيه، ثمّ قال في ثقة:

- الكنز ليس له بوّابة يا جايل، فهو أسفل البيوت، ومَن يحفر حلال عليه يجد نصيبه المقسوم، أمّا عبد الرحيم وأبناؤه وأولاد عمّه جمعة؛ فقد طمعوا كعادتهم وجلبوا الساحر المغربي ليستحوذوا عليه دونَ النّاس، فالرجل سرُّه باتع، وبخوره وعزيمته أقوى من أيّ طلسم، وتكسر أيّ رصد، تكتموا على السّر لولْا كلمات تطايرت من فم سالم ابن عبد الرحيم دون قصد ليلة أمس بعد أن دارَ رأسه من دخان البانجو، الذي يغرق فيه كلّ ليلة هو وشلّته الفاسدة.

همدتْ نيران صدر جايل أخيرًا- ولو قليلًا- كنار حجر الجوزة من أمامه، هزّ رأسه بعد أنْ عرف السرّ، وردّد في اطمئنان:

- إذًا هذه هي الحكاية؟ لا بدّ أن نجدَ لأنفسنا مكانًا وسط القوم، طالما كانت القصعة تسع الكلّ لن تفوتنا أبدًا مهْما كانت التّضحيات، فقد لا تتكرّر ثانية، إنّه رزقنا ورزق أولادنا، يعني حلال عليهم وحرام علينا!!

حملق فيه صاحبه، ولم ينطقْ بكلمة واحدة، وكأنّه ينكر عليه طموحه، ويراه ضربًا من الجنون؛ فهذا طريقٌ وعر، يصعب على أمثاله، أمّا جايل فلا يملك من متاع الدنيا إلّا العدة التي يقصّ بها حمير الزبائن، وامرأة سليطة اللّسان وأربع بنات لا يجدْنَ الخبز الحاف.

غادر المقهى لكنّ أحلامه ومناه لم تغادر رأسه، تدور من حوله تلامسه وتهمز له كلّ حين، تسلّلت شرارةُ المال وأحلامُ الثراء داخل عقله فاحتوته، انقطع عن عمله تدريجيًّا، لا همّ له إلّا أمر الدفينة وحكايات المساخيط، عاش بين طيّات البخور المتصاعد من مجمرة الشّيخ المغربي، تتهافت على مسامعه- بلا انقطاع- عزائم الزجر التي يقهر بها الخادم، ويسيطر بها على الرّصد، أصبح همُّه التجوال في شوارع القرية والارتماء فوق مصاطبها يتمنّى ألّا يبرحها حتّى يتصيّد من حكايا الناس ما يرضي طموحَه ويبعث في قلبه المُضطرب اليقينَ والثقة من أن نصيبَه محجوز في الدفينة التي استقرّت أسفل

القرية، ولكنّ أقاصيص العامّة كانت أغلبها تدور حول المغربي الذي استوطن بيت عبد الرحيم منذُ أيّام، يلازمه ولا يبرحُه، واستعدادات أهل البيت للحفر التي تتسرّب أوّلًا بأوّل فتتلاعب بالمشاعر وإنْ لم تكن حقيقة في أغلبها، ولكنّ الكلام لا ينقطع منذ أنْ وطئت قدمُ الرّجُل بيتَ عبد الرحيم المهجور خارج البلدة.

اجتاحَ وباءُ الحفر البيوت، وتلقّفته العقول المتهافتة المتلهّفة والأفواه الجائعة التي تحلم بالثّراء والجاه والشّبع، يغازلها سرابُ الذّهب اللامع في صحاري فقرها الأزلي، إنه قدر الفلاح الذي أورث العوزَ مع ما تُرك له من ميراث الأيام، فلا حيلة أمامه إلّا السعي وراء الحلم، وإن تكلّف الواحد منهم حياته، فلا شيء ثمين ليخسره طالما العائد يستحق.

افترش جايلُ الطّرقاتِ فتراه في كلّ زقاقٍ مندسًّا وسط أيّ رفقة، يتودّد للكبير ويراضي الصّغير دون تململٍ أو سخط، يقضي يومَه يقطف ما يشتهي من ثمار المجالس، ويعود لرسميّة بعد انقضاء النهار، والتي كعادتها تكونُ في استقباله مع كلّ مساء، وبنفس المشاعر التي ودّعته بها صباحًا؛ تندبُ حظّها العاثر وقدَرَها الذي أوقف هذا العاطلَ المُستهتر في طريقها، تشكو الأيام التي ضنّت عليها بالراحة كغيرها من نساء العزبة، فحتمًا سيجني هؤلاء المساكين ثمارَ غفلته لو استمرّ في هذه البطالة وهذا الطيش، صارحتْه ذاتَ ليلة بعد أن أعياها الشّجار ونفد صبرُها من النّصح،

لكنه لا يفتأ يبثّ في مسامعها أمانيه الوردية حتّى حفظتها من طول التّرداد، يسند ظهره بعد أن يستوي فوق الدّكة الخشب المتهالكة المستقرّة خلف الباب الكبير، ويقول في نشوةِ المنتصر:

- هاتي الشّاي يا رسمية.

هزّت المرأة يدها في استخفاف وهي توَشّر ناحية السقف المتداعي، وقالت متحسرة:

- كلّه على الله، اصبرْ حتّى يأتي الفرج من عند الكريم، أليست هذه كلماتك المعتادة، انتظر كي أضربَ الأرض بقدمي فأخرج لك الشّاي والسكر والمعسل.. ألا تستح يا رجل لقد نفدَ مِن دارنا كلّ شيء حتّى الدقيق الذي نطعمُ به أولادك، وأنت لا همّ لك سوى الجري وراء الكذب، لقد لحست عقلك قصصُ المساخيط والدفينة، وحتمًا ستفقده عمّا قريب.

تحرّك نحوها في هدوءٍ وثبات، ثمّ باغتها وطوّق خصرها بذراعيه، شيء لم يكن في حسبانِ المرأة، وعبثًا جاهدت كي تدفعه عنها، لكنّه أحكم قبضتَه حول خصرها الضامر فاستماتتْ يدُه بعد أن تشبّث بثيابها البالية ما استطاع، حدّق في عينيها وقال بحنان مستعطفًا:

- نعم سوف نضربُ الأرض لتُخرج لنا كلّ شيء، ولكن ليس المعسّل ولا الشاي فقط، بل الذّهب والياقوت والمساخيط يا ستّ الكلّ، المساخيط التي تغرق هذا البيت، سنعوم في بحار العسل والنّعمة،

ستلبس سيدةُ البيت الحلي، وتخدمها ألفُ خادمة وخادم يلبّونَ طلباتها، يأتمرونَ بأمرها، برمشة من عينها.

ثمّ طبع قُبلة حارّة على خدّها الغائر الذي انتزعت ليونته، وتركها وانصرف ناحية زير الماء، فاغترف منه بالكوز الصّاح القديم وشرب حتّى ارتوى.

كانت رسميّة لا تزال في نشوةِ القُبلة الدافئة التي باغتها بها جايل.

عادَ ثانية للدكة، وأخرج من جيبه علبة السجائر فأشعل سيجارته المتبقية فيها، واحتواه تفكيرٌ طويل، تحرّكت في بطء بعد أن فكّت ضفائرها القصيرة وارتسمت على وجهها ابتسامة لم يعهدها جايلُ من قبْل، استقرّت بجواره تتمسّح في جلبابه، تمامًا كما تفعل القطة مع صاحبها، ارتمت على صدره العاري وقالت وقد أغمضتْ عينيها في نشوة وخضوع مستسلمة له تمامًا على غير المعتاد:

- أتعرف أنّ جنونك وتهوّرك همَا سبب تعلّقي بك وعشقي لك؟! لقد أحببتك قبل أن أراك، تشوّقت لما سمعته عنك من حكايا البنات، عن جايل حلاق الحمير الذي يسقط على بلدتنا كلّ أسبوع، فتسبقه قصصُه ومغامراته وحنية قلبه، ساعتها تمنيت أن تكون من نصيبي وتكون قسمتي، وها قد تحقّق، لقد عوّضني حبي عن أشياء كثيرة عن نعيم الدنيا الذي حرمته منذ صغري عن فقرنا، تكفيني منك كلمةٌ حلوة، لكن وبعدَ أن أصبح في رقبتك كومةُ اللّحم هذه يتوجّب عليك أن تنظر إلى حالك، أستحلفك بالله ألّا تشمت بنا الأعادي.

انسابتْ من بين طبقات جفونها الذّابلة السود دمعةٌ أغرقت خدّيها، وسالت فاختلطت بسوادِ كحلِ عينها الرّخيص، انتبه لها فاحتْضنها ومدّ يدَه فمسح ما تناثر على وجهها، وهمس إليها في حنوّ أبوي، قائلًا:

- لا تظنّي أنّني أهوى الفقر والبطالة يا عزيزتي، على الإطلاق، إنّ جُلّ أمانيّ فوق ما تتخيّلين، أنْ أغمض عيني وأجدَك سيدة هذه القرية، هانم كبيرة متوّجة في قصر يفوق سرايا البيه، وأجد أبنائي في أحْسن هيئة، لكنّني أتساءل: لماذا يكتب علينا الفقر والعوز وغيرنا ثعالب ضارية، تتلاعب بالفلوس؟ لماذا لا نكون منهم، ما يمنعني من اللّحاق بهم؟

وأشارَ بيدِه إلى الأرض من تحته، ثمّ ضرب بقدمِه ضربات متتالية قوية بانفعال، والمرأة تنظرُ باستغراب وذهول، ثمّ هبّ واقفًا وتحرّك بضع خطوات في المكان، ومدّ أصبعه مؤشّرًا، وصرخ:

- هنا من تحت أقدامي، وعلى عمْقِ اللهُ وحده أعلمُ به، تطمر الأرض الدفينة، الكنز يا رسميّة، الذي يفوق كنزَ قارون، بضربة فأس وقبضة بخور، وعزيمة شيخ مغربي ماهر ينفكّ الطلسم، ويولي الرّصد، تنتشق الأرض وتلدُ ما في بطنها، تهبنا العزّ والجاه الذي يكفينا لمائة جيلٍ من بعدنا.. هنا يا رسميّة هنا.

جعلَ يجوس المكان، ويدُكّ الأرض من تحته بهستيرية، أذهلها منظره فتقدمت إليه واحتضنتْه في شفقةٍ لتنفكّ عقدة لسانها، قائلة:

- ماذا أصابك يا جايل؟ أيّ كنز، وأيّ أرض التي ستنشق؟! مَن أخبر هذا، أم ترى ما تسمعُه على المقهى أصابك باللّوث، على رسلك يا حبيبي.

قهقهَ بصوتٍ عال، وجذبها من يدها واندفع قائلًا:

- لا وحياتك إنّه الكنز.. الدّفينة أسفل بيوت القرية جميعها، تنتظر الإذنَ بالخروج، لقد سبق عبد الرحيم وأولاده فأتوْا بالمغربي كي يفتحَ لهم السّرداب، وهو الآن قد استوطن بيتهم القديم.

جاهدتِ المرأة كي تستجمعَ ذهنها المشتّت، ابتلعت ريقها وهي تقول ذاهلة:

- برأيك هلْ هذا شيء يقبلُه عقل، كيف؟! وهل سيجدونَ مأربهم بهذه السهولة؟ لكن ما علاقتُنا نحنُ بهذا الموضوع وما العائد؟، أم تراه السّراب المُهلك، وهل هذا سيجلب الشاي والسّكر والدقيق وكسوة العيال؟! انْفُض عن رأسك غبارَ الطّمع، واستعذ بالله من شرّ الشّيطان، وابتعد أسلمُ لنا، وارْجع لعملك.

اقتربَ منها وقال معنّفًا:

- أقول لك تحتَ أقدامنا كنز قارون ومَن يسبق يغترفُ منه وتقولين أرْجع لعملي!! عن أي عملٍ تتكلّمين! قصّ الحمير، أليس كذلك؟ أستجدي الناس وأتقاضى أجرتي بيضًا وقمحًا وتمرًا، لن أترك هذا الأمر حتّى أتمّه أو أهلك دونه، أنا شريك عبد الرحيم في الدفينة شاء مَن شاء.

حاولتِ المرأة التلطف بعد أنْ زاد عنادُه وتصميمه، فهي تعرفُه جيدًا، وتعرف صلابة رأسِه. تحرّكت ناحية الباب، دلفت للخارج، وعادت سريعًا تحمل بين يديها لفافة صغيرة، شيّعته بابتسامةٍ رقيقة، لتغيب دقائقَ وتعود بعدها وهي تحمل- مبتهجةً- كوبًا من الشاي المغلي تفوحُ رائحته تعبق المكان، تلمّظ صاحبُنا واندفع نحوها، على ما يبدو أنها استلفت تلقيمة الشّاي والسكر من جارتها أمّ رزق، تناول الشاي وحدّق ببصره لا يصدق تجاوبها معه، على ما يبدو أنّ المرأة العنيدة لانَتْ في النهاية، وها هي قد استسلمت لسحر كلامه فقلبُها المتيّم به، والذي تدور في فلكه، لن يطاوعها على أن تستمرّ مكابرةً طوال الوقت، استمرّ في شربه قبل أن يتنبهَ لها، عاجلَها متسائلًا:

- ما لكِ يا امرأة! لماذا تتطلّعين إليّ هكذا؟ ماذا يدور برأسك؟

هرشتْ في جنبها بعنف، وقالت:

- وهل باستطاعة عبد الرحيم إخراجُ الدفينة والاستحواذ عليها مُنفردًا؟!، ترى ماذا يضرّك لو تحفر مثله، فكما تقول الكنزُ يعمّ البيوت كلها، وحصّتنا بمنأى عن هذا المفتري، لا.. لا.. لا، إنّني لا أثقُ في أوهامك، هو شيء لا يقبله منطق.

انتهى جايل من الشاي، وألقى بفضلةِ الكوب على الأرض، قام وضرب برجله ثانية معجبًا، ساد صمتٌ تحرّك ناحية المصطبة متربّعًا عليها وهو يمرّر يده عليها بخفة، رمى بابتسامةٍ صافية إليها، ثمّ

نزع طاقيتَه عن رأسه المدبّب مُنحنيًا، ووضع خدَّه فوق التراب، ثمّ أغمض عينيه، وابتسامتُه لا تزال تزاحم وجهَه اليابس، ألصق أذنَه بشدّة وكأنه يتسمع شيئًا يدور من تحته، نظرتْ رسمية مستغربة لأمْرِه تتملّكها الدّهشة والذهول، تقدمت نحوه في ثباتٍ جالسة إلى جواره، وقالت:

- إنّ أشدّ ما أخشاه أن يكون الأمرُ سرابًا، عندها حتمًا ستُصاب باللوث ويختلط عقلك فأبقى بحسرتي أنا وكومةُ اللّحم من بعدك، تعقّل ولا تندفع حتّى حين، فالحذرُ واجبٌ في هذا الأمر، والاندفاع عماية.

لم يرفعْ رأسَه، وكأنّه لا يسمعها، طرقَ بكفّه لتتحوّل ابتسامته إلى ضحك صاخب ثمّ اعتدل جالسًا، وقال بسخرية:

- أيّتها المعتوهة.. ماذا تقولين؟ أأخبرك عن كنز قارون من تحتنا، وتحدّثيني عن التروي والصّبر والقناعة، لقد شبعتُ منهماو وآن لي أنْ أحذف كلّ هذا من قاموسي بلا رجعة، لقد واتتْنا الفرصة على طبقٍ من ذهب ولن نفلتَها أبدًا، لن نترك الجَملَ بما حمل لعبد الرحيم وغيره من كلاب القرية، سنغترفُ مثلهم ما يكفي من مساخيط الدفينة، لا فقر بعد اليوم هل سمعتِ؟

رأتِ المرأة من أمامها- ولأوّل وهلة- شخصًا غريبًا عنها لا عهد لها به، رجُلًا خالطه مسٌّ من الجنون، تتراقص في عينيه شهوةٌ غريبة لا تعرفها، ومصيرٌ مجهول لا يتكشف، خافت منه أيّما خوف، تركته أخيرًا بعد أن دفعت بابَ إحدى الغرف المجاورة واندسّت بين أبنائها

المستغرقين في نوْمهم، جاهدت تستجدي النومَ لكنّها فشلت، فحديث زوجها وأفعاله شاخصةٌ أمامها تتراقص كأشباحٍ في سقف الغرفة، ظلّت هكذا حتّى داهمها الصباح بنوره، وتلاعبتْ أشعّةُ الشمس مخترقةً فتحاتِ الشّباك من فوق رأسها، لكنّها أخيرًا استسلمت لرسل النّوم، فثقل رأسُها وسكرتْ من خمره، فوضعت يدها تحت صدْغِها وسلمت الوفاض وكلامُ جايل لا يزال في أذنيها.

(٣)

أمّا جايل فلم يلامسْ جنبُه الأرض، ظلّ ليلته ساهرًا يفكّر في دفينته، يسترجع- بتحرّق- كلماتِ أبي خطوة، وما أقدم عليه عبد الرحيم، تحومُ من حول رأسه صور وخيالات لا يقوى على صدّها، منظر البخور المُتَصاعد من المجمرة، وهمسات الشيخ المغربي في زيّه الذي يشبه الدّراويش الذين يراهم في موالد الفولي والمنسافيسي، وزجره للرصد والخدّام وكلماته وتمتمتُه غير المفهومة، والرجالُ من حوله ينبشون الأرض بالمساحي بلا توقف، ومن ورائهم عبد الرحيم وبينه يسيل لعابُهم في ترقب.

استبدّ به الفكرُ لدرجة لا توصَف، يهب كلّ دقيقة على قدميه؛ فيدخل الغرفة المهجورة في بيتِه يتفحّص أركانها ويعاين أرضيّتها، يلامس تربتها بتحنّن والحماس يستعر في صدره، لقد شارفَ صاحبنا على الجنون، ولوْلا بقية من لطف الله به لوقع فيها.

وأخيرًا داهمه الصباحُ بعد أن تسلّلت أشعة الشمس بازغة في عنفوان معلنةً نهارًا جديدًا، تسلّل معه خلسة دونَ أن يشعر به أحد، ولكنّه لا يعرف له وجهة يرافقه هم ثقيل كالجبال، جاثمٌ على صدره منذ المساء، ولعلّ في الخروج فكاكًا منه.

استيقظت رسميّة، وفي عجلةٍ ذهبت تستطلع أمره، لكنّها لم تجده، ترى أين ذهب ذلك الوجلُ المفتون بدفينته؟

ازدادَ قلقُها عليه، فهي تعلم خطورةَ ما عزم عليه، فأمامه أبوابٌ من الشرّ آه لو فتحت، على الرّغم ممّا راودها من حلم الدّفينة والثراء وانغماسها فيه لكنها قلقة، وجايل عنيد لا يقبلُ النّصح، وسيمضي حتّى النهاية، خاصّة بعد أن لمع الذهب في رأسه، فأضاء مسالك الطّمع في نفسه، وانفجر من بين جنبات روحه بركانٌ عنيف يهدر، تغطي سحبُه كلّ ذرّة من كيانه، يقذف حممَه الملتهبة، وإنّ ما يخشى أن يأتي اليوم الذي ينصهر فيها ما تبقّى من إنسانيّته، فيتحوّل إلى مسخ لا همّ له إلّا أنْ يلهث وراء المال.

يسعى إليه بأيّة وسيلة كانت، حتّى ولو كان الثمن حياته.

جلستِ المرأةُ على الأرض، وبقايا من حديث الأمس تلامسُ رأسَها، وتهفّ حوله برفق، حاولت بادئ أمرها البقاء، وأخيرًا قامت متكاسلة تقضي شئون بيتها، أدارت الكلام في عقلِها طوالَ اليوم، وهواجسُ تتواردُ بلا رويّة تشتّت المرأة التي بدت مُتعبة لا تقوى على العمل زاهدة فيه.

استغفرتْ ربّها من شرّ الشيطان، ثمّ عادت إلى جلستها الأولى، ولكنّها انشغلت هذه المرّة برعاية دواجنها، تردّد في وجلٍ متأثّرة: لأجل حبيبك النّبي يا ربّ كن لجايل، فهو فقير طول عمره، فقير ومنكسر، وفي حاله، وقلبه أبيض من اللّبن الحليب، هوّ وإن كان أهوج حبّتين لكنْ زيّ العيّل صغير، لا يحمل الحقدَ لأحد، عاش قانعًا بما قسمته، يشقى على صغاره.

أمسكتْ فجأة عن الكلام بعد أنْ عادت كلماتُ جايل تغالب الدّعاء، يعلو رنينها فيصمّ الأذان ويمسكُ بالسان، ألقت ببقايا الحبّ من يدها وقالت هامسة وكأنّها تتساءل: وهل كتب على جايل وزوجته وأولادهما الفقرُ والعوز دون بقيّة الخلق؟! هل من العدل أن يتمرغ أناس في الحرير وغيرُهم قطع له نصيبٌ من جبال الشقاء والغلب، وهل جايل سقط من الحسبة لا يجري عليه ما يجري على أولئك ممّن فتحتْ لهم الأرضُ كنوزها، فاغترفوا ما يكفيهم لسابع جيل، رحم اللهُ أيّام الفقر؛ لقد كان عبد الرحيم وإخوته أجَريّة يضربونَ الطوب ويبْنون الكمن، هل تناسوا أصلهم الوضيع؟ حتّى أبي كان له عليهم أفضال، ويا ما أكّلهم عندنا، وسلّفهم غلّة يطحنوها، لكن الآن سبحان العاطي أصبح عبد الرحيم بيه ومراته نفيسة هانم بنت أمّ خلقة مرقعة.

أمّا جايل فحالُه حال، يقضي وقتَه في جمع الأخبار المتناثرة من أفواه الأهالي لا يترك منها شيئًا قلّ أو كثر، يتنقل كعادته من دار لدار ومن مصطبة لأخرى ومن صحبة لغيرها، أصبح وثيقَ الصّلة بهذه المجالس يرتادها ليلَ نهار، انقطع تمامًا عن عمله وتفرّغ لشأن الدّفينة، لكنّه بين حينٍ وآخر يرضخ أمامَ إلحاح المرأة وإصرارها وكلامها الذي يشبه السمّ كما تعوّد أن يسمّيه؛ فيذهب مُكْرهًا يحمل عدّته ليمرّ على عرب السوق وعزبة خير الله ونجع شلقامي وكوم

مسمار، ويعودُ بقروش زهيدة بالكاد تكفي لإطعام الأفواه الجائعة المفتوحة بعد يومٍ كامل من الكد والتعب.

حاولتْ رسميّة أن تمسك يدَها مقتصدةً ما استطاعت كي تطوع ما تجود به يدُ جايل لإطعام العيال نفقة للأسبوع بكامله، حتّى يأذنَ اللهُ له بالذّهاب مرّة أخرى، هي وإن فعلت لكنها كانت غيرَ مُقتنعة بما تفعل، وهي ترى الحرمانَ في عيون أولادها، مشتتة بين الدفينة وذهبها، وبين كسل جايل وأحلامه.

في بادئ أمرها تململتْ مُعلنة امتعاضَها، منزعجة ساخطة لهذا الفعل، ويومًا بعد يوم وقعتْ أسيرةً لسحر كلامه المعسول عن الدّفينة وأحلام الثراء، التي لا يملّ منها يحدثها بها كلّ لحظةٍ في السّر والعلن، فجال بخاطرها ما يجول برأسه من أمانٍ، وأصبح الاثنان في وحدة، وربّما فاقته في بعض الأحيان، كثيرًا ما سرحت أثناء كلامِه وهو يقصّ عليها ما سمعَه من أحاديث الناس عن مغارات الذّهب المطمورة تحت الأرض وما تحويه، والدفائن التي يعثر عليها أصحابُ النّصيب دون ترتيب، فتتبدّل أحوالهم أحوالًا، وكيف أنّ حجارة مصمتة يقال لها المساخيط، يكفي ثمنُها لأن يملأ صندوقًا من أوراق النقدية الحمراء والخضراء، لا ينقطع حديثهما ساعةً عن الكنوز، فإذا صمت حتّته في عجلة أن يحكي ويحكي بلا توقف، سُرّ جايل وهو يرى يومًا بعد يومٍ أثرَ حديثه في نفس رفيقته، يشعّ من ناظريها بريقُ الذّهب، وتتزاحم في قلبها وعقلها الأماني والأحلام

تغوص فيها حتّى رأسها، فأيقن ساعتئذٍ أنّ المرأة سقطت في يدِه فريسة سهلة لا حراك فيها، ومسّها سحر حديثِه الفتّان، واستهواها ما استهواه ففقدتِ الوعي، زاد فضولها عن ذي قبل، فتندفع من تلقاءِ نفسها طوعًا لتحضر له الجوزة، وتعدّ أكواب الشاي الساخن عند عودته من الخارج؛ ليصلَ ما انقطع من حديث الأمس، ويقصّ عليها الجديد، كان لا يضنّ عليها بحديثه، وإن أشفق أحيانًا أن يصيب المرأة ما يخالط عقلها.

كان ذكيًّا فأشعل ذهنَ صاحبته بنَهمٍ لم تجدْ من دونه مهْرَبًا، تملكها الأملُ لأبعد مدى، تتوهّج في عينيها جذوتُه يومًا بعد يوم، الآن اطمئنّ إلى ثقتها فلن يلقى منها مقاومة تُذكَر حتّى يأذن اللهُ بأمره.

لم يكنْ عبد الرحيم- وأولادُه- على علمٍ بحركة جايل المريبة في القرية، وتتبّعه للأمر بهذا الاهتمام، لم يخطرْ ببالهم أنّ حلّاق الحمير يمكنه أن ينضمّ لركْبِ صائدي الكنوز ومتعقبي الدّفائن، هو أبعدُ ما يكون.

فمثل هذه الأعمال بحاجةٍ إلى مال يكفي نفقتها، ويلبّي طلباتها، فأجر المشايخ وتسخير الأسياد وطرد الرّصد، ناهيك عن أجرة العمّال ممّن يجري الاعتمادُ عليهم، وفوق هذا وذاك فعبدُ الرحيم يملك العزوة والعائلة والمعارف من الكبار، ليقبض بيدٍ من حديد على المكان، ويمنع ما يمكن أن يعطّل عليه أشغاله.

هيّأ عبدُ الرحيم غرفةً في بيته المهجور نُزلًا للشيخ المغربي زائر القرية الذي جلب من بلادِه البعيدة كي يخضع بعزيمته الرّصد، ويفكّ الطّلسم، ويسلّط الجان القوي فيكون طوع يدِه يدلّه على مخارج الكنز ومداخلِه دون جهد، قد تطول المدّةُ وقد تقصر لكنّ مهارة الرّجل تحسم في النّهاية الأمرَ لصالحه.

استطاعَ جايل تخطّي الحواجز المفروضة حول السّر، مخترقًا أسوأها العالية، وأن يجمع بين يديه تفاصيلَ تُرضيه لما يجري في داخل البيت المهجور، يزداد نهمُه وتتفتح شهيته عندَ سماع خبرٍ جديد يتطاير له، فيقبلُ عليه بصدرٍ رحْب، وشهيّة يقوى معها عزمه فيمضي في طريقه دون رويّة.

كانت رسميّةٌ من خلفه تنتظر بفارغ الصّبر ذلك اليوم، وتعدّ له العُدّة، اليوم الذي تتمخّض الأرضُ فيه وتلدُ كنزها الموعود؛ فتغرف بحفنتها من ذهبه، وتجمع بين ذراعيها مساخيطه لها وللمحرومين أبنائها نوافذ السّعد، يطلّون منها مودّعين ماضيهم الأغبر، ويفترقونَ عن فقرهم المرابط أمام عتبة الدار. لنفتح

لم يتركْ جايل الحبلَ على غاربه، لم تكفِه الأماني؛ بل اتّفقا الاثنان وتلاقى على هوى واحد، إنّه بحاجةٍ لمصدر يمدّه بالمعلومات يثقُ فيه، فعاملُ الوقت والسّرية مطلوبان، وجد في صبي المقهى ضالّته المنشودة، أبو خطوة الشّخص المناسب الذي يمكن الاستعانة به، لعلّ في كلامه وما يثيره من لواعج وحرمان ما شجّعه، علاوة على

تلاقيهما سويًّا في الحقدِ على عبد الرحيم، ورغبته في التّغيير؛ فها قد واتت الفرصة.

أمّا أبو خطوة فيقدّر في جايل اندفاعه وجنونه، ويعجبه صلابةُ رأسه، فأدرك أنّه بحاجة لهذا الحماس وذاك الاندفاع، لكنّ الوقت لم يكنْ حان بعدُ كي يفاتحه فيما أضمره من أمر الدّفينة، فتركه يصطلي بنار الفضول وشهوة الرّغبة، يحفظ بصنيعه المسافة بينه وبين هذا المتهوّر.

ويجنّب نفسَه مغبّة انتقام عبد الرحيم ورجاله إذا أذيعَ السّر، لم يغبْ أبو خطوة عن بال جايل، فأصبح صديقه الحميم وأثيرَه، بعد أن تظاهرَا بالتّصالح فتلاشت آثار عداوة قديمة نمتْ بينهما، بسبب تفضيل رسميّة جايل عليه، ولكنّه كان يقول حال تذكّره: الزواج قسمة ونصيب.. وإنْ أسرّها في نفسه، وطواها في ثنايا ذاكرته.

يتردّد جايل عليه عند كلّ مساء بعد أنْ ينفض زبائن المقهى، في البداية اقتصر كلامهما في الشّأن العام، ثمّ تطوّر عندما اطمئن كلّ إلى صاحبه، راهن أبو خطوة على طاعة صاحبه فاندفع يحكي له كلّ ما يصلُ أذنيه من أمر الدفينة، وما يجري مع الشيخ المغربي في البيت المهجور، أحيانًا يزيد في قصصه فيحكي عن عبد الرحيم الفقير المعدم الذي عملَ ردحًا، يحملُ الأحجار في المحجر غرب بحر يوسف، وكيف كان همّ عبد الرحيم الدّفينة التي تحاكَى عنها الناس،

فسلبتْ عقلَ الشّاب الطموح الذي جاهد ليخرج عن عباءة الفقر هو ووالده.

ظلّ على حاله حتّى ابتسم الحظّ له بعدما تنامى لمسامعه أخيرًا حديثٌ بين الحاج أحمد القرم صاحب المحجر وبين زغلول المعداوي مشرف العمّال، فقد رصد الريس حركة غريبةً لأحد العمال، وتبعه ذاتَ مرّة لمكانٍ بحجّة قضاء الحاجة، وبعد أن ارتاب فيه تبيّن أنّه يحفر بحذرٍ ويخفي لفافةً من قماش، ثمّ نزع خرقة من ثوبه وصنع منها شاخصًا.

علمَ الحاج أنّ صاحبنا عثر على عقدٍ من الذهب وبعض المساخيط وآنية من الفخار، فما كان منه إلّا الإفلات بما خفّ وزنُه خشية افتضاح أمْره، وقبل انصراف العمّال تسلّل الحاج ليعثروا على العقد، ليتّضح لهم أنّ كنزًا كبيرًا عثر عليه الرجل مصادفة، وأنّه ينقل محتوياته مجزّأة كلّ يوم، ممّا دفع الحاج لأنْ يطرد العمّال ويأتي بأهله وذويه وبعض من يثقُ بهم ليحفروا خلفَ الدفينة، ومعهم شيخ من الجنوب يسمى الشيخ عنتر أبو مخلة، والذي دلّهم بخوره وعزيمته السّحرية وطلاسمه على المكان المعلوم، ليسيطر على الرصد وعمّار المكان، فاستخرجَ كنزه وسط حرّاسه من رجاله المدجّجين بالسلاح الذين تناثروا بين التّلال يمنعون الطير أن يحوم بالسّماء، ومن ساعتها أصبح للقرم شأنٌ كبير، ثروة وجاهٌ وعزوة وقطيعٌ من الأتباع، ومئات الأفدنة وعشرات الأبنية والعمارات في البندر، وسرايات مؤثّثة بأفخم الأثاث، وعشرات الحكايا التي يقصّها

الناس وتلوكها ألسنتهم ليل نهار عنْ خزائنه التي تفيض ذهبًا وفضة، وأساطير عن غرفة نومه التي لا تدخلها إلّا زوجتُه ابنة العمدة، وقد ملئت بالمساخيط من كلّ حجم، يقال بأنّ لديه غزالة من الذهب الخالص وضعها إلى جانب سرير نومه.

اندفعَ أبو خطوة في سرد قصصِه المثيرة، وجايل منصتٌ لا يرمش له جفن، قال بعد أن نهشَ قطعة من الجبن القديم: هل تعلم بأنّ أحد الأنفار من عمال القرم استطاع وعلى رغم من قبضتِه الحديدية؛ تهريبَ قطع من المساخيط، والآن يعطيك ما أعطاه! عمارتين في المنيا وعشرة محالّ في شارع الحسيني، وخمس شاحنات كبار تجوب مصر من شمالها لجنوبها تحمل البضائع.

عادَ جايلُ سريعًا يفكر في عبد الرحيم وماضيه، ويقارن معه حاله، عاجله صاحبه، قال مندفعًا: والأدهى من عبد الرحيم قرني القفاص، لقد أصبح بين عشيّة وضحاها غولًا كبيرًا، ابتسمَ له الحظ، بعد أنْ عثر على زلعةٍ ملئت ذهبًا وهو يحفر أثاث بيت خاله إسماعيل أبي النّجا، كانت فاتحة الخير عليه وعلى أولاده، وتغيّر حاله، يُقال والله أعلم إنّ أحد أولاده من حميدة ابنة دسوقي تاجر الجريد؛ أصبح طبيبًا، والآخر موظّفًا كبيرًا في وزارة العدل، لقد هجرَ البلد من بعدها، واستقرّ في بيتٍ اشتراه في مصر، لقد مرّ عليه حمدان المراكبي منذ عامين عندنا ذهب بأنّه لطبيب العيون.

قال جايل: لقد حكى لنا عبد الرحيم ذات مرّة أنّ الحاج القرم عثر على بيضة من الذهب بحجم البرتقالة، وعكّاز من الذهب، ولديه منخلٌ للدقيق من الذهب الخالص، خلاف السّيوف والخناجر والفؤوس الذهبية، وكلّه كوم وغزالته الذهبية التي تفوق الحمار حجمًا كومٌ آخر.

أمّا عبد الرحيم فكان شاغلُه أن يحافظ على السّرية والتكتم قدر المستطاع، يصرخ في أتباعه أن يتأكّدوا من الحراسة المفروضة حول البيت، وأن تكون طلبات المغربي مجابة مهْما كانت، فلا بدّ من بدء الحفر بأسرع وقت.

لم ينقطع الكلامُ ساعةً بين الفلاحين، ففي كلّ يوم حكاية جديدة ينسجها خيالهم المشبع بالطّمع، وكلّ ساعةٍ خبرٌ يلقّق عن الدفينة، فهذا حالُ الفلاحين منذ بدء الخليقة يجدون مهربَهم في القصص والكلام، تنسيهم جوعَهم، فإنْ لم يجد الواحد منهم حكاية اختلق لنفسه حكاية يذيب فيها همومَه، ولعلّهم وجدوا في الحديث عن الدفينة والكنز ما يلهيهم ويسليهم فيقضوا وقتَهم يطووا أوجاعهم ويتغافلوا عن شقاءهم، ويومًا بعد يوم أدمنوا الكلام بعد أن استمرّوه فلم يعدْ يسمع في الحقل فقط، بل يردّدونه في أسمارهم، ولسانُ حالهم يقول: وهل نحن أقلّ من عبد الرحيم وأولاده حتّى يرثوا هذا الجاهَ العريض، وهل الأرض أحنّ عليهم منّا، حتّى تفتح لهم بطنها فيعرفوا من إرثِ الفراعين، نحن أبناء هذه الأرض نبتنا منها كما

الزّرع، ألسنا من أحفادهم وورثة خيرهم، حتّى يضنّوا علينا، فماذا يحدث لو تقاسم الناس هذه الدّفينة، وما ضرّنا لو حفرنا تحت بيوتنا، الرزق كثيرٌ يسعُ الجميع، أم أن الشقاء كتب لنا دونهم؟!

تغيّرت طبائعُ الفلاحين في الآونة الأخيرة، ساعة رنّ الذّهب في عقولهم وبرق في فضاء أطماع البعض؛ لم يعودوا الأجراءَ الذين رضوا بقسمة الله ورزقه، أصبحت أحاديث الثراء والتمرّد على الأوضاع والرّغبة في تغييرها بأيّ شكل؛ شغلهم، غاصوا فيها حتّى تراقيهم فانْتشوا لذّة لمذاقها الساحر، عرفوا السّهر ولياليه، وهجروا الفأس، وبدلوا برائحة الكد في طلبِ الحلال وفلاحةِ الأرض، روائح فاترة عطورًا جلبوها من البندر تلائم ما آلوا إليه فيا للحسرة!.

تحلّقت حول بيوتهم سحبُ الطّمع، وساقوا ما يبرّر هذا الخداع، ويسوّغه، ويلبس عليه الشّرعية التي تبيح للأخ دمَ أخيه، وما المانع من طلب الجاه والمال، أليس رزقًا ساقه الله، أليست الدّفينة للكلّ، أليست كدًّا يستحقّ السعي تمامًا كما الفأس والمنجل!؟

سكنوا أخيرًا قصورَ الوهم التي شيّدت فوق رمال الطمع، ولا مردّ لهم من إكمال الطريق.

وفي يومٍ مُشمس من أيام الرّيف الحارة التي يتعوّدها الغلابة، اجتمع ثلاثة من أبناء الشقاء جمعَهم ظلّ سنطةٍ فوق مصرف، سرى بينهم- بالطّبع- خيطٌ من خيوط الحديث عن الدفينة والكنز.

نصبَ صغيرهم ظهرَه بعد أن ألقى بفأسه حانقًا، وأمسك بجرّة الماء يبلّ بها صداه، أطلق من صدْره زفرةً ملتهبة، تفوق سخونتها حرارةَ الجوّ الملتهب من حوله، ثمّ مدّ طرفه نحو الفضاءِ الأخضر المتّسع من حوله، وقال وهو يكسر جفنيه:

- آهٍ لو تنشقّ الأرض من تحتي الآن؛ لدخلت دهاليزها واعترفت من حجرها، وعبّأت من ذهبها الأصفر الرّنان، فأصبحت قارون زماني.

ثمّ انحنى على صاحبيه، وقال مستهزءًا:

- لا تخافا لنْ أنساكما، فأنتما مَن سيشرف على مزارعي ويراعي حظائري، اطمئنا فالرّاتب مُجزٍ.

حدجَه صاحبه بعينٍ يقطر منها الغيظ، وردّ عليه وهو يمسح عن جبهته عرقها، وهزّ رأسه متجهّمًا:

- إنّك لبخيلٌ ذميم، تقول مالًا كمال قارون وتبخلُ على إخوانك حتّى بعد غناك، أيّها الثري اللّئيم هل ستقبل أن يظلّ أخواك أجيرانِ بين الحقول ووسط الفواعلية وأنتَ من الأعيان!؟

عاجلَه الثّالث قائلًا في حدّة:

- دعْه يحلم، وهل خُلق الشقاءُ والفقر والعوز إلّا لأمثالنا، إنّ الأرض لو انشقت لكلّ الناس فباضت خيرَها، وجادت بذهبها؛ لن تلتفت إلينا، أتعرفان السّبب؟ ببساطة لأننا ورثنا مع الفقرِ التّعاسة والحظّ العاثر،

ورثنا خيبةَ الأمل تلحفنا بها، هيّا اعْملا كي ننتهي من هذا الحرّ، واهْجرَا أحلام العصافير تلك، أيّها الغرابان الأسودان.

تعالتْ ضحكاتهم تهزّ السّكون المشتعل من حولهم، صمتوا قليلًا، ولكن للحديث حلاوة تقطرُ من كلّ فم، يداعبُ الخيال بلا إذن، ويقتحم العقلَ بلا روية طالما كان القلب يدقّ، والعين تبصر.

هرشَ أحدُهم رأسَه بقوّة، وقال مستجديًا:

- آهٍ لو تحنّ علينا الأرض، فتخرج لنا أمارةً من تحت فؤوسنا، آه لو تمنّ فتدلّنا على السّرداب الموصل للدفينة، قال الناس بأنّ فتحتَه موجودة في حقل من الحقول التي تلتفّ حول البيوت، قال الحاج فرج عبد المولى إنّه سمع في مولد سيدي الفولي درويشًا مغربيًّا يأتي للزّيارة كلّ عام، أخبره أنّ ممرًّا طويلًا يمتدّ من أسوان في الجنوب وينتهي عند البحر المالح، وعلى امتدادِ تلك المسافة تخرج فتحاتٌ ضيّقة وممرّات مموّهة مسحورة في كلّ بلدةٍ تتّسع لرجلٍ واحد، أعدّها الفراعين لتمرّ منها الجيوش عندما تتعرض مدنهم لغزو خارجيّ أو لحصار، وبداخلها ممرّاتٌ سريّة ملئت بالذهب والمتاع، والمساخيط وجرار التّبر، والأكل والشرب.

أثارَ الكلام فضولَ صاحبيه، واستساغا المعلومة فحرنا ناحيته، لكنّه ضرب بفأسه ضربة متراخية، واستقام من انحناءته، وقال:

- ولكنّها في كثير من الأحيان ما تكون للموعودين الذين اختارهم الله واصطفاهم للسعادة في الدّنيا، فأنتم جميعًا تعرفون حكاية الشيخ

صالح بغدادي الذي يتحاكى عنه الناس منذ أكثرَ من مائة عام، كان تاجرًا للغلال في عزبة المرج البحرية، عاش في صلاح وأمانة، محبًّا للفقراء والمساكين، قالوا: إنه خرجَ ذاتَ ليلة لصلاة الفجر وبينما هو يمشي في الطريق قاصدًا المسجد، وإذْ بالأرض تنشقّ أمامه، وتضيء فتحة بأنوار خطفت بصره، تقدّم نحْوها وإذْ بدهليز أوصلَ الرجلَ لكنزٍ ثمين، رُصدَ للرّجل منذ كان في بطن أمّه، فاغترفَ منه ما ملأ عباءته عدّة مرّات، وما أنْ لاح نور الصبح حتّى تساوت الأرض واختفى النورُ، وسُدّ الدهليز، وكأنّ شيئًا لم يكن، وهذا هو مصدرُ العزّ والجاه عند البغايدة الآن.

استسلمَا لسحر حديثه في خضوع تامّ دون كلام، ثمّ اتّجهوا صامتين للظلّ عسى أن ينالوا قسطًا من الراحة، ولكنّه واصل حديثه المعسول في حماسة الخبير:

- هل تعلموا أنّ لهذه الكنوز طقسًا غريبًا يجب أن يتمّ قبل أن تفتح، فهذه الأمور لا يمكن لها أن تحدثَ هباءًا، فلا بدّ من شيخ مغربي متمرّسٍ فهو الأجدر على إخضاع مردَةِ الجن، وتسخير عُتاة الشياطين من حرّاس الدفائن ممّن أوكلوا بها منذ آلاف السنين، لقد قال لي ابنُ خالتي زينب: إنّ شيخًا أحضروه ليفتح كنزًا لأحد الأثرياء في قريتهم، فطلب منهم أن يجهّزوا له طلبات غريبة، هل سمعتُم عن شيء اسمه الطاشّ المغربي، هو بخور يستخرج من شجرةٍ هناك متبقّية في غابة نائية لا تطرقها رجْلُ مخلوق، فالناس يعتقدون أنّ

الجان مَن يحرسُها، وورقها غذاءٌ له، ومن العسير الوصول للبخور إلّا بواسطة خدام المكان، لا يحصلُ الفرد إلّا على جرام واحدٍ منه، وهو يكفي لتحضير المارد الموكّل بالمكان، وتغييبه عن وعيه حال استنشاقه الدّخان المتصاعد، عندها يبدأ الحفرُ ووسط عزائم الشيخ يبتعد أصحابُه فيفشلون في إنقاذه، وقبل أنْ يعود لصوابه يغادرون بحملهم، وإلّا فتك بهم وأفناهم، ثمّ ينفجر ويموتُ غيظًا لضياع ما كان يحرسه، فقد خان الأمانة وفرط فيها.

لمعتْ عينُ أصحابه، وقال أحدهما:

- بكم هذا الجرامُ الملعون؟

قال له موبّخًا: بفلوس كتير يا حزين، لا تقدر عليها ولا عائلتك الأجرية.

شردَ بذهنه وسط ضحكاتِ صديقيْه، وقال:

- آهٍ لو استطعت الحصولَ على فرع من تلك الشجرة؛ لملأت الحقل بها وغرستها في مكان، ولجعلت الكيلو منها بقرشين، ولفتحَ الناس به كلّ يوم كنزًا.

ردّ عليه كبيرهم:

- مكنش حدّ غُلب.. حلم الجعان عيش يا ولدي.

ألهَتْهم أحاديثُ الدفينة والكنز عن أعمالهم المتعطّلة، وانساقوا وراء أطماع لا تتحقّق، آهٍ من ذاك التّرياق الأصفر الذي يعالج أوهامَ المرضى، ويتبعوه حتّى ولو أهلكهم، وهكذا هي الدّنيا لا تعطي

أبناءها إلّا السّراب، ولا تريهم إلّا ما أرادت، يظلّ الواحد منهم مخلصًا لها وفيًّا إلى أن يرحلَ عنها صفرَ اليدين، بل قد لا يجدُ ما يواري به عورته وجثمانه.

سريعًا أذيعت أخبارُ الدفينة وتفشّت كالوباء الملعون، تتلاعب بعقولهم فيهيمونَ في صحاري الخيال طوعًا، لا يسمعونَ إلّا صوتَها العذب تسلبُ نغمته كلّ عقل.

جلس المعلّم صابر الجيار أمامَ الأسطى عزب الحلّاق على مصطبته يحلق رأسَه، قال له مندفعًا:

- هل سمعت ما يُقال عن الدفينة يا معلم؟

هزّ الرجل رأسَه نافيًا في صمت، قال في نبرة الواثق:

- قالوا بأنّ الدفينة بها مساخيط كثيرة من كلّ نوع؛ ذهب ونحاس وحجر، لكنّ الشيء الأهمّ مِن هذا وذاك، بل هو أغلى المُقتنيات التي لا تقدّر بسعر، آه لو أتحصّل على زلعة منه...

حدجَه صاحبه بنظرةٍ مستغربًا:

- يبدو أنّك ثعلب ماكر تعرف الكثيرَ من الأسرار، إنّك تتكلم عن أشياء غامضة يا أسطى، قصّ علينا حتّى نتسلّى، وهل في الدنيا ما هو أغلى من الذّهب يا رجل، والمساخيط!؟

قال له صاحبه:

- نعم هناك، يلهث خلفَها الخواجات ويشترونها بماء العيون، أذكر وأنا صغير ذهبنا لدفن جدّي المرحوم الشيخ عبد الباقي في الجبّانة،

وأثناء الحفر في الرمال ضربت الفأس في جسمٍ صلب، أشبه برأسٍ كبير، كان الجميع في عجلة ولم يبالوا فاضطرّوا للحفر في موضع ثان لدفن ميّتهم، وبعد انصرافهم جاءَ ليلًا مَن يحفر ويستولي على هذا الشيء، ذهبنا بعد مدّةٍ نبيض القبر بالجير فوجدْنا حفرةً عميقة، وآثارها التي بقيت لأسابيع قبل أن يضطرّ عمّي لردمها خوفًا من أن يُذاع السرّ، فيأتي مَن ينبش القبر، ويعيثونَ بالميت.

بهتَ صاحبُه، وقال في فضول:

- لكن ما هو الشيء الذي أخذوه يا ترى؟

قال الأسطى عزب وهو يمرّر فرشاة الصابون على ذقنه:

- يقول الناس اسمُه الزّئبق الأحمر، وهو مادّة حمراءُ اللون داكنة، قطرة منها تسعد قرية مثلَ قريتنا، تحيل العجوزَ شابًّا، والحديدَ ذهبًا، تسخر الجان وتخضعهم مهما كان جبروتهم، وهو نادرٌ جدًّا، لا يوجد إلّا في زجاجات مثل زجاجة قطرة العين، في جبانات ملوك الفراعنة، قال لي جدي إنّ جارهم المقدّس غبريال عثر على واحدة صدفة، كان الرجُلُ على علمٍ بحقيقة الخليط فأخفاه من ساعتها، ولكن زوجته سوسينا ألقته في الترعة ظنًّا منها أنّه سمّ فئران، وما أنْ علم الرجُلُ فعلتها حتّى أصابته جلطة لزم فراشه يعوي مثلَ الذئب وهو يشير بيده ناحيتها، حتّى فارق الدنيا.

وهكذا حال الأسطى عزب وزبائنه في كلّ يوم، يأسرهم حديثُ الدفينة، يبدأ مجلسهم بها وينفضّ بها، تعطّلت أشغالهم وبارت

حقولهم، تمرّد فقيرهم على لقمة عيشه، وكفرَ بستر الله ولطفِه، وانتشى غنيّهم يتيه عشقًا في أمر الدفينة ولوْ كلّفته ثروته، وتحوّلت عزبة الكوم من بلدٍ يكدّ أبناؤه في طلب الحلال إلى طمّاعين لا يعرفونَ من دنياهم إلّا الجري وراء الدّفينة والرزق البارد، وهكذا حالُ ابن آدم لا يشبع أبدًا، ولا يملأ عينه إلّا التراب.

(٤)

تطايراتْ أخبار عبد الرحيم يمينًا وشمالًا، فلا سرّ يؤتمن في هذه القرية الصغيرة، هكذا تعوّد الناس، فالكلام لا يثبتُ في مكانٍ، كالهواء الذي يجوب حقولها، وكما تتدفق مياه التّرع والمصارف، كسطوع الشّمس في كلّ صبيحة، أصبح الناس لا همّ لهم إلّا الدفينة ولكنّه ظلّ حديثًا باهتًا تحجبُه الرّهبة، ويخنقه البطش، ويترصّده الخوف من جبروت عبد الرحيم، فهؤلاء المساكين لا حيلة لهم، اللّهم إلّا الكلام، حتّى الكلام قد يجرّ عليهم نقمته لو علمَ فيمنعهم العملَ في مزارعه الفسيحة، إنّه لصٌّ ونابشُ قبور، غير أنّه السيد الذي يملك كلّ شيء، ويتصرّف في أقواتهم، المتحكّم الذي يفرض حكمه، وسوطه يده يطال الجميع.

جاهد عبد الرحيم بما وسعه؛ كي يغيّر الصورة النّمطية التي التصقت في أذهان الأهالي في القرية والقرى المجاورة، صورةُ عبد الرحيم الأجَري الفقير مُحْدث النّعمة، فلم يكن إلى ذلك من سبيلٍ سوى بذلِ المال، حفنات من الطّعام ينثرها في الأفواه الجائعة فتخضع له رقابها، جنيهات يدسّها في جيوبهم الفارغة يعمي بها عيونهم، ويلجم ألسنتهم التي شهدت تفاصيلَ ماضيه الأغبر، لا تفارق خياله صورته وهو يركبُ خلف والده على حماره الهزيل يجوبُ القرى يصلح السّواقي، إنّه يعرف جيدًا كيف يخضع هؤلاء الفلاحين، يجيد لغتَهم،

ويفهم رموزَها، فهو ابنُهم، طباعه من طباعهم، فبيْنهم مَن على استعداد لأن يبيع نفسَه بثمنٍ بخس لا يهمّه من السّيد طالما استطاع دفع الثمن.

ولعلّ الرجُلَ يدرك بحنكتِه التي وهبتْها له الأيام وطولِ التمرّس؛ أنّ المال هو السيد المُطاع، لذا فهو يجودُ به طوعًا، على الرّغم من شحّه؛ ليشتري الذّمم ويسخر الأتباع، فكلّ شيءٍ له ثمن في هذه الحياة، هكذا تعلّم الرجل، وهذا قانون الحياة ودستورها الذي أقسم يمينًا على طاعته وبرّه.

الخلقُ والضمائر والذّمم سلعة ولا بدّ لها مِن مُشترٍ، وبالمال تفتح لك الأبواب المغلقة، ولا وجودَ للعواطف ولا رحمة للضعفاء، فالفقرُ ضعفٌ وهو أقسمَ أن يقطع كلّ ما يصله به.

حرصَ على تسخيرهم لصالحه، فجيّش جيشًا منهم يأتمرون بأمره، خصّص فصيلًا منهم كآلةٍ للدّعاية والترويج، لتظلّ مستقرّة في أذهان العامّة صورة الحاج عبد الرحيم رجل البرّ والإحسان، الذي يعرف قدْرَ أهل بلده، يبذل مالَه وجهده لخدمتهم، وبهذا يستحقّ أن يطاع ولا ينازع في زعامة.

أطلق الرجُلُ أبواقه في كلّ مكان تزيّف الحقيقة، فانطلقت الحاشية تنسج شباكَها حول العقول التي أرهقها الفقر، وأثقلتْها الحاجة، فصوّروا صاحبهم كآلهة، فهو الكريم ابن الكريم، وهو الشّهمُ صاحبُ

المروءة، فيا سعدَ مَن رضي عنه الحاج، ويا تعسَ وشقاء من سخطَ عليه وغضب.

انشغلَ الرجُلُ كثيرًا بأمر الدّفائن، وتتبّع الكنوز، تفرّغ لها تمامًا، فأضحى وكأنّه يشمّ رائحتها من تحت سابع أرض، لا يهمّه ما ينفق في سبيلها، طالما كان ذهبًا يرنّ فتشقق له الأسماع، ولعلّ في شراء البيوت القديمة والمهجورة ما يفتح شهيّته ويزيد من نهمه، وبواسطة بخور الشّيخ سنقر المغربي وعزائمِه التي لا تخيبُ، وبمعاول الرجال الثقاة الأشدّاء لا شيء يصعبُ أبدًا.

يستدرجُ ضحيته من أصحاب البيوت القديمة، يتودد إليه ويتقرب فيعمي بصره بالمال، وشيئًا فشيئًا ينتزعه منه ويبدأ الحفر، والذي يكون بشكلٍ عاجل، فهو يعلم أنّ عينًا استْعصت عليه، فلا يأمن مكرَهَا.

وماذا ينقصه، سنقر لا يفارق المكانَ حتّى تخرج الأرض ما فيها، ورجاله الذين اختارهم على عينِه يضربون الأرضَ ليلَ نهار، بعد أنْ ذاقوا خيرَه فعاهدوه على الطاعة والوفاء، الذي لا ثالث لهما؛ فرصاصةٌ بقرشين تكفي الخائن وابنَ الحرام كما تعوّد أن يسميه.

إنّه على استعدادٍ لأنْ يكمل طريقه مهما كانت التّضحيات، فكلّ صعبٍ يهون أمام الدفينة، وكلّ بريقٍ دونَ بريق ذهبها ظلامٌ دامس، لدى الرجل خبراتٌ كبيرة اكتسبها من طول ملازمتِه لزبائنه من

الخواجات، الذين أمدّوه بالخرائط والرّسوم، وما يلزم من معدّات المسح والمجسّات، ولا مانع من بعض الخبراء إذا لزم الأمر.

كانت أكثر بيوتِ القرية غايةً في القدم، فأغرثْه، فسعى في امتلاكها، ولعلّ بيت عمّه الشيخ إسماعيل المتولي محفّظ القرآن في وسط القرية سحَرَ عقله، هو بيتٌ واسع، ذو بناء عتيق، ورثه الشّيخُ عن زوجته هانم المصيلحي، والتي رثثْه عنْ أجدادها ذوي الأصول التركية، بعد أنْ آلَ إليهم عن طريق الشّراء من عائلةٍ من المماليك، يقال إنّه كان لأميرٍ كبير من أمرائهم الذين حكموا الصّعيد منزلٌ قديمٌ تهدّمت بعضُ أسواره، وتآكلت حوافّ جدرانه، غير أنّ الشيخ اسماعيل لم يفرّطْ في صيانتِه وترميمِه وفاءً لزوجته الراحلة التي أحبّها حتّى الجنون، أشرفَ بنفسه على إصلاحه، بعد أن اتّخذه كتّابًا يعلم فيه يتامى القرية كتابَ الله تعالى بالمجّان، صدقة على روحها.

يسيلُ لعابُ عبد الرحيم كلّما جاء ذكْرُه، أو مرّ بجوار حوائطه أو سوره الطّيني، ولكن من سوءِ طالعه أنّ عمّه الشيخ كان على علمٍ بنيّته السيئة، يعرف جيدًا ما يحيكه من حيل، ولطالما حاربَه علانية، ولطالما حذّر أهل القرية من السّيْر في ركابه، أطلق عليه اسم الشّيطان، ولقب جماعتِه بالفَسَقة، يشهر بهم في كلّ مكان، في المسجد، وعلى الترعة، وفي الحقول، وفي كلّ مناسبة، تصل كلماتُه اللاذعة ابن أخيه الذي قوي عزمُه، وزادَ إصراره فاندفعَ يقسم بأغلظِ

الأيْمان بأنّه سوق ينتزعه من بين يديه، حتّى وإن كانت روحه هي الثّمن..

لم يتورّع الشيخُ عن سبّه والنّيْل منه، يدعو الله أن يكفيه والنّاسَ شرَّه، يقول في جلساته: عبد الرحيم زرع شيْطاني ونبات فاسد، ولا يجري في عروقه إلّا الجشع والطمع، هو عبدُ المال ورفيقُ الشّيطان؛ لأنّه يسبّح بحمده، يتقرّب إليه ليساعده، إنّ مالَه الملعون وأفعاله المشبوهة لا بدّ وأن تجرّ على القرية الويْل، وتذيق أهلَها أصناف العذاب، ولن تنكسر شوكتُه إلّا بقدرةِ الله، ووعي النّاس بهذا المتلاعب الأفاق.

لم تزدْه كلماتُ عمّه إلّا كرْهًا، تمنّى اليوم الذي يسقط في قبضته وينتهي منه فيخمد صوت العجوز للأبد.

زارَه ذاتَ مرّة ضيق غريب، شقّ شوارع القرية بسيارته الفارهة، استقبله بالبشْر والتّرحاب، طوّق المكان برجاله، يبدو أنّ ضيقه من الصنف الثقيل، وبعد أن استقرّ بالضّيف المقام، اتّجه إليه في لهفة:

- لقد صادفتُ بيتًا قديمًا في طريقي.. لمَن يكون؟!

فجأة، ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ فاترة، وهو يقول:

- لماذا هذا السّؤال يا خواجة، خيرًا.. هل تحتاج بيتًا للسّكنى؟

وانخرط في ضحكةٍ سمجة لم يستملحها الرجُل، نظر إليه بانزعاج، عاجلَه بنفثةِ دخان كثيفة من سيجاره الفاخر وهو يطوي حنقه، قائلًا:

- إنّك لا تريد أن تتعلّم، ستظلّ بقيّة حياتك بجسدِ فيلٍ، وعقل عصفور.

تنحنحَ عبد الرحيم وقد احمرّ وجهُه خجلًا من توبيخ الرّجُل، بعد أن شعر بالحرج أمام أولاده، لكنّ ابنه الأوسط سالم تدارك الموقف، وقال متلطفًا:

- بيت جدّي الشّيخ إسماعيل عمّ أبي، هو بيت قديم جدًّا، لا يعرف تاريخ بنائه، ورثه عن زوجتِه ذات الأصول التّركية، لكنْ ما الذي أثار انتباهك في البيت يا خواجة؟!

حدَجَه بعينيه الزّرقاويْن، وقال مبتسمًا:

- على ما يبدو أنّك شابّ ذكي يا سالم، ولن تخيّب ظنّي فيك مثل والدك، فالمرحلة القادمة بحاجةٍ لدماء الشباب، والعمل مع الشباب أمثالك أضمن.

قال سالم وكأنّه فهمَ مغزى كلامه:

- لا تخفْ يا خواجة، البيت لنا، سيسقط في قبضتنا قريبًا.

أعادَ الرجلُ نظرَه لعبد الرحيم الذي ظلّ صامتًا في مكانه، أمره الخواجة أن يعجّل بشراء البيت، فاحتمال أنْ يكون هو المكان الذي حدّدته الخرائط، زاد كلامُه من حيرة عبد الرحيم، قال متسائلًا:

- أمّا مسألة الشراء أو انْتزاع البيت فمُمْكنة، ما هي إلّا مسألة وقت، لكن ما غاب عنّي أن يكونَ تحته كنز كما تزعم.

أدرك الخواجة أنّ صاحبه خبيث؛ فهو يعرفه، لكنّه قال في حسم:

- هل تستطع إتمامَ الشّراء في أسرع وقت، التوقعات تشير إلى أنّ في القرية مكانًا يحتمل أنْ يكون هذا البيت، تستقرّ في بطنه دفينة ستعوّض خسارتنا الماضية.

قاطعه عبد الرحيم متململًا:

- ولكنّ عمّي الشيخ إسماعيل رجلٌ صعبُ المِراس، وهو كارهٌ لعملنا، ورافض لفكرة البيع بالمرّة، وهو يؤلّب الناسَ ضدّنا، ولا حيلة معه الآن لإقناعه.

ردّ عليه:

- لا بدّ أن تتصرّف، هذا الأمر هيّنٌ، وأنت تستطيع التغلّب عليه، لقد طلبت استقدام آلة جديدة من الخارج، سنمرّرها من فتحة أسفل البيت تكشف لنا تفاصيلَ ما تحته، ولعلها في الطريق الآن.

نظرَ سالم لوالده، وقال بصوتٍ هامس:

- ليقضي اللهُ أمرًا كان مفعولًا.

أصبحَ همّهم انتزاعَ البيت بأيّ ثمن، فحزموا أمرهم, ولا بدّ من الإيقاع بالعجوز.

في إحدى الليالي طرق بابَ عمّه لكنْ لم يجدْ منه سوى النّكران، خاطبه في تجهّم:

- أيّ ريح خبيثة أتتْ بك يا غرابَ البيْن، ألم أحذّرك الاقتراب من عتبة البيت أيها الشيطان!؟

تحاملَ على نفسه بعد أن تصنّع ابتسامةً فاترة، وقال:

- إنّ صلةَ الرّحم وعظامَ التربة هي التي أجبرتني على زيارتك، فأضع حدًّا لهذه القطيعة يا عمّي العزيز، جاءني أبي البارحة في المنام، وكان حزينًا كاسف البال، وقال لي زاجرًا: كيف لا تصل عمّكَ الشّيخ أيها العاق، كيف لا تطيعه وهوَ كبيرُ العائلة وتدخل في طوعه، غدًا تذهب إليه وتطلبُ منه السّماح، وتقبّل حذاءه ليرضى عنك.

هوى سريعًا يقبّل قدمَ الشيخ، انتفض الرجلُ فحرّك رجلَه بسرعة وكأنّه يخشى أن يلمسَه، قال الشّيخ في استهزاء:

- هل جئتَ لتخدعني بحيلةٍ جديدة أيّها الإبليس اللعين، كما تعوّدت خداع ضحاياك من السّذج المَعاتيه، إنّك تتحدّث مع الشيخ إسماعيل الذي يعلم عنك ما لا تعلمه عن نفسك، لقد حملتك لحمةً حمراء بين يدي عندما أتى بك والدُك فرحًا لأرقيك، كنت لا تفارق حجري لا تبرح عتبةَ داري، كنت أرى فيك شمسي ونهاري، كنت أرى فيك العوضَ عن الولد، لطالما ادّخرتُك لتحمل مِن بعدي هَمّ الكتاب، ولكنّ شيطانك سبقني فتخطفك واصطفاك لنفسِه وسيطر عليك، وها هو يقودُك إلى هلكتِكَ لتحترق معه في نار الطّمع وإيذاء الخلق، ومن قبلها كفر النّعم، إنّك أبعد ما يكونُ عن تأنيب الضمير لأنّك حرمت الضمير الحي، إنّك فرع مائلٌ في شجرتها، ولا أملَ للناس إلّا بالخلاص منك، اعلمْ أيّها الجشع أن مكيدتك قادتْكَ لطريقي، واللهُ وحده يعلم بها، ولكنّني سأقف أمامك بالمرصاد لأفضحك وأكشفَ زيفك، وكشف

خداعك وأعرّي الغطاء عن عيون المخدوعين، والآن انْصرف من أمامي ملعونًا مدحورًا.

جاهدَ كي يحافظ على رباطةِ جأشه، ويبقى فضلة من صبره الذي نفد مع العجوز، تمالك وألانَ له الحديثَ ثانية، متعلّلًا بفتح صفحة جديدة تطوى فيها ذكرياتُ الماضي الأليمة، يعاهده على فعل الخيْر والسعي في صالح الناس.

نظرَ إليه العجوز باستغراب، تشجّع عبد الرحيم وقال مفتعلًا:

- نعم يا عمّي، فأنا أريدُك أن تأخذَ بيَدي لتفتح صفحةً جديدة، لقد انتويتُ أن أقدّم لأهل القرية كافّة خدماتي، سأضعُ أموالي بين يديْك، رهنَ تصرّفك كيفما تشاء، و.....

وقبلَ أن يكملَ قاطعَه الشيخُ بقوّة:

- وهل تظنّني سأصدّقك وأخْدَع، فأشتركُ في هذه المسرحية الهزليّة أيّها الماكر؟! إنّ الله طيّبٌ لا يقبلُ إلّا طيّبًا، كيف أضع بين يدي هاتين نجاستك؟! أتريدني أنْ أختمَ حياتي عونًا مِن أعوان الشيطان، لا فائدة تُرجى منّي أيها الثّعلب، فمَن باع نفسه للشيطان كيف يُؤتَمَن؟! كيف يصبح حليفًا للرّحمن؟! هيّا اغْرُب عنّي.

تحرّك عبدُ الرحيم ناحيةَ الباب وهو يبرطم متوعّدًا العجوز، أغلقَ البابَ من خلفه، وردّد في حنْق: سترى، سترى.

ظلّ يردّدها حتّى غاب عن البيت، وفي بيته اجتمعَ بأولاده وما أن اسْتقرّ مجلسهم حتّى عاجلَهم في شدّة:

- لا مفرّ من الخلاص من الشّيخ المُخرّف بأيّة وسيلة، هو عقبةٌ كؤود تعترض طريقنا، ولا مناصَ من التّضحية به عاجلًا، أشيروا عليّ.

وبعدَ مداولاتٍ طويلة استقرّ الرأي بالإجماع على خطف الشيخ وحبْسِه في مكان بعيد لحين الانتهاءِ من العمل وجلْبِ الدّفينة، وبالفعل اتّخذوا تدابيرهم، لكنّه طالبهم أن يقوموا بها دون الاسْتعانة بسواهم.

فالرّجلُ مُسنّ لا يتحمّل، علاوة على أنّه عمُّهم، ويمكن أن يعيّرهم الناس لو تسرّب الخبر، وفي سرعةٍ تربّصوا به وهوَ خارجٌ لصلاة الفجر، فأغموا عينيه وكمّموه واقتادوه لمكان مجْهول. ظلّ الشيخُ في مكانه عدّة أيّام لا يعرف مصيرَه، يجهل شخصيّة الجُناة، لكنّه سلّمَ أمرَه لله بعد أنْ قنط من النّجاة. مرّت أيامٌ اضطرّ عبد الرحيم لأنْ يذهب إليه، تردّد قليلًا، لكنّه تواجه معه مباشرة، وما أنْ رآه عمّه حتّى انفجر الشيخُ ضاحكًا:

- لقد كنتُ على يقينٍ كامل من أنّ هذه الخسّة لا تصدر إلّا عن وقِح، وها أنت ذا أمامي لم يخبْ ظنّي فيك، إنّ الجري وراء الدفائن سرابٌ كاذب، سينتهي بك في صحراء واسعة تمتدّ بلا نهاية، ستبتلعك رمالُها في بطنِها بلا رحمة، لن تستطيع الرجوعَ؛ فهلاكُك ينتظرك هناك، ومقتلك هناك حيثُ أطماعك، إنّ نارَ البخور الذي تحرقه تحضر به الأبالسة سيأتي اليومُ الذي يشتعل فيك، فيحولك لرمادٍ

تذْروه الرياح، وسيكون مستقرُّك الجحيم، مع شياطينك من الإنس والجنّ. والله لو امتلكتَ كنوز قارون فلن تشبع؛ لقد كُتب عليه النّهمُ والشّرَه، كُتب عليك أن تسيرَ في هذا الطريق، تتخبّط في حفره حتّى تصل لخزيك، اعلمْ يا ابنَ أخي أنّ مَن يطلب أسباب الصلاح يوفق إليها، ومَن يسلك طريق الغواية فالخذلانُ مآله.

وقف عبدُ الرحيم مبهوتًا، ولكنّه ولأوّل مرّة حاولَ- عن قناعة- استرضاءَ العجوز الذي انصرفَ عنه مستغفرًا، مُستعيذًا بالله من الشيطان وكيْدِه، تقدّم منه وبتأثّرٍ قال:

- إنّني ما كرهتُك للحظة، ولا حدّثت نفسي بهذا أبدًا، وإن تلفّظتُ به ظاهرًا، إنّني أحبّك يا عمّ، فمكانُك عندي عظيم، ومنزلتُك في نفسي مِن منزلة أبي، ولكنّ عنادك مَن أوصلنا لهذا الطّريق المسدود، وما أقدمْتُ عليه أتيتُه مُكرَهًا، لكنّني أعدك أن أعيدَك سالمًا بعد انتهاء المهمّة.

التفتَ إليه الشيخ، وقال:

- ينتهي الحفرُ الذي أشار به الخواجة.. أليسَ كذلك!؟ إنّ في النفق متاهةً وظلامًا ودمًا ينتظر كلّ طمّاع يلهث وراءَ السراب، لقد جمعك الشيطانُ وقرينه، فتضع يدك في يده لتجرّا معًا الخرابَ للقرية، لتفتح متاهاتِ الشرّ في وجه الفلّاحين البسطاء، الذين عاشوا وعاشَ أهلوهم قانعينَ برزق الله ومقسومِه، جئت بالفتنة ومِن بعدها الموت لا محالة.

ردّ عبدُ الرحيم متثاقلًا:

- هذا كلامٌ لا يفيد الآن، وأنا لم أغصبْ أحدًا، فكلّ شيء يتمّ بالتراضي، الآن أتركك وسأعودُ إليك بعد أن أستخرج دفينتي، بعدها حلالٌ عليك بيتك.

كان الخواجة قد وصل ومعه آلاتُ الحفر، في البداية طلب منهم أن يحفروا حفرة بعمق كبيرٍ ليُدخلوا منها المجسّاتِ إلى السرداب، كي يستطلع بها محتواه، وبالفعل بدأ الحفر حتّى انتهوا لسردابٍ مظلم تمامًا كما أخبر الخواجة، عندها سال لعابُ عبد الرحيم وأولادِه، تحرّكت الآلة في النفق بعد أن طلبَ الخواجة من العمّال تتبّعها، ظلّ صاحبنا يصرخ فيهم متوتّرًا:

- بسرعة يا رجالة.. بسرعة.

وبينما هم مشغولون في عملهم، وإذ بالأرض تتزلزلُ فجأةً من حولهم، ويتهدّم النفق من فوقهم، وتطمر تحتها بعض العمّال، علا الضجيجُ، وتوالى الصّراخ يصمّ الآذان، وتناثر الغبارُ في كلّ مكان، هرول عبدُ الرحيم فزعًا لا يلوي على شيء، هو والخواجة وأولاده هربًا بأنفسهم من هذا الجحيم، صاح مردّدًا:

- كيف حدث هذا؟! هل كان العجوزُ اللعين على علمٍ بما سيجري! هل هو فخّ نُصب لنا..؟!

استقرّ المكان، عندها طلب من أولاده التكتّمَ على الخبر وكأنّ شيئًا لم يكن، اشتعل رأسه بالفكر، وبعد يومٍ ذهب لعمّه في مكانه ظنًّا منه

أنّ مع الرجل السّر، تمنّى أن ينتزعه منه، فوجئ بما لم يكنْ في الحسبان، لقد فارق العجوزُ الحياة وهو لا يزال في قيوده، يشكو بؤسَ حاله وتسلّط الطماع عليه.

وقف صاحبُنا مبهوتًا لرؤيته، دبّ الرعبُ في قلبه وهو يستحضر آخرَ حديثٍ دار بينهما، وبعد قليلٍ طلب من أولاده أن يحملوه ويعيدوه إلى منزله خفيةً تحت جنح الظلام، ليعلن من غدٍ أنّ الشيخ إسماعيل- عمّه- الغالي قد فارق الحياة في بيته وعلى فراشه، وبالفعل كان له ما أراد.

تظاهر المُحتالُ القاتل بالحزن، وبدأ في وصلة تمثيلٍ مُحْكمة، فمصابُه في عمّه كبير! بالغ في مظاهر العزاء لأبعدِ حدّ، أقام أمام بيته سرادقًا كبيرًا يتلقى التعازي من كبار المسئولين الذين وفدوا على القرية من كلّ مكان، وهكذا دنيا البشر بُنيت على الكذاب والخداع والمصلحة التي لا تعرف للرحمة طريقًا.

انقضتْ أيامُ العزاء ثقيلةً على قلبه، وبعدها جلس إلى أولاده وقال لهم في حديث طويلٍ حاولوا الوصولَ إلى إجابةٍ لما حدث في بيت إسماعيل، وهل كان إسماعيلُ يعرف السرَّ قبْلَهم، وهل بإمكانهم استكمالُ الحفر أسفلَ البيت وإكمال ما بدأ، وما مصير الجثث التي تحتَ الأنقاض؟!

لكنّهم لم يصلوا لإجابةٍ مُرْضيَة، طلب منهم الاحتياطَ للأمر، كما يتمّ التّنبيه على الشخص الوحيدِ الذي نجا معهم من الحادث، والذي شهدَ ما حصل.

وبالفعل تردّد سالم على المستشفى الذي يرقدُ فيه عبدُ المحسن الجمّال بعد أن كُسرت رجلُه وهو يفرّ ناجيًا من السّرداب، كانت إصابتُه طفيفة لكنّه أصيب بحالةٍ من الصمت، على ما يبدو أنّها نتيجةٌ طبيعيّة لما رأى في ذاك الجحيم، فالموتُ كان أقربَ إليه من كفّه. لم يهمله سالم؛ تردّد عليه باستمرار حتّى عاد مُعافًى لبيته، كرّر الزيارةَ بين الحين والآخر، ومعها لا يكفّ عن طلبه الوحيد:

- أنتَ لا شُفت ولا سمعت، فاهم يا عبد المحسن؟

انشغلَ عبدُ الرحيم بما جرى في السّرداب بعد أن غادر الخواجة القرية، والذي طلبَ منه البحثَ فورًا عن مخْرَج، لكنّه لم يهْتدِ لشيء، فإذا أراد أن يعرف لا بدّ أن يُكمل ما بدأ.

غابَ عنه- وعن الجميع- أنّ البيت يرجع في الأصل لأميرٍ من أمراء المماليك الكبار، الذينَ حكموا الصعيد، وقد كان حريصًا على تأمين نفسه في حال هجوم خصومه على البيتِ وتطويقه، فحفرَ هذا النّفق الطويل أسفل بيته يفرّ منه ساعةَ الخطر، وقد ألحق بهذا السّرداب أفخاخًا تبتلعُ مَن يحاول الاقتراب من الغرباء الذين غاب عنهم اللّغز.. وقد كان.

(٥)

لم تنقطع الإشاعاتُ في القرية ولم يفتُرْ غليانها، تناثر الحديثُ بين الناس عن دفينة عبد الرحيم الكبيرة التي يبحثُ عنها، لكنّهم لم يعرفوا أكثرَ من هذا، توارى الشيخ المغربي عن أنظار الفلّاحين قليلًا، ريثما تهدأ الأمور.

وفي المقابل وجدَ عبدُ المحسن- الشّاهدُ الوحيد- من اضطرابِ عبد الرحيم وأولاده، وما عاينَه من حادث الشّيخ إسماعيل، وتهدّم النّفق؛ ما يبعثُ على الرعب، فلو فُتح تحقيقٌ في الموضوع لجلبَ لهم المتاعب.. بدايةَ آثرَ السّلامة، لكنّه شاور نفسه فالفرصةُ لا تأتي في العُمر إلّا مرّة، ولا بدّ أن يقتنصها فيفرضُ شروطه، ويسعى إلى ابتزازهم قدْرَ الإمكان.

جلسَ ذاتَ ليلة إلى زوجتِه حميدة فأطْلعها صراحةً على سرّه وما جرى في تلك الليلة، زادَ خوفُ المرأة وانطبق صدرُها، لم تصدّق أذنيها فوْر سماعها، اقترحت عليه الهروبَ بعيدًا عن القرية واعتزال هذه المشاكل، قالت في تألّم:

- ما رأيُك أن نهربَ كلّنا بعيدًا، أستطيع العملَ ومساعدتَك في أي مهنة، حتّى ولو اضطررنا لأكل الخبز الحاف، لكنّ العمرَ ليس لعبة، هؤلاء قومٌ لا يعرفون الإنسانية، دينُهم القرش، ومبدؤهم الغدرُ والخيانة.

أخذ رشفة من كوب الشاي في يده، وقال في تمهّل وقد استغرق في تفكيرٍ طويل:

- إنّها الفرصة التي أنتظرُها منذ سنين أيّتها البلهاء، ولن أفلتَها من يدي، بعدها سآخذك وأبناءنا ونغادرُ هذا المكانَ لجهةٍ غير معلومة لا يعرفنا فيها أحد، لكن أريدك أن تسمعي كلامي وتنفّذيه بالحرفِ الواحد، فلو حدث لي مكروهٌ اذّهبي فورًا للنّقطة، وأبلغي بكلّ ما تعرفيه، ولا تعودي هنا أبدًا.

اشْتعلتِ الأجواءُ من حول جايل وهوَ لا يدْري، لكنّه لم يهدأ، يجوب القرية يستطلع من أمرِ الدّفينة ما يُرضي حلمَه، تمنّى أن يبتسم له الحظُّ فيجد الممرّ السحري الذي ينزل منه فيضعُ يدَه على الكنز، كومة المساخيط والممرّات المليئة بالذهب، كلّ ما يعرفه أن الممرّ الموصّل للدّفينة يمرّ من أسفل بيوت القرية، ولكنْ كيف السّبيل إليه، يا ترى ماذا يفعل لو صادفَه حارسُ الكنز، فلوْ أراد الرّصد بسوء لحوّله لترابٍ بنفخة واحدة منه، بل ولأشعل القرية والزّمامَ كلّه بلهبٍ يتلظى فيه الناس.

لازم أبا خطوة، ورافقه لا يبرح مقْهاه، اتّفق الاثنان على الشراكة في هذا الخير، جمعهما حلمٌ واحد، وأسلمَا الوفاض لعدْوى الطّمع التي تفشّت في الفلاحين أمثالهم.

ومِن ورائه وقفت رسميّة في ثقةٍ تدفعهم، آنَ لها أن تتخلّص من جوعها الذي أفنت عمرَها فيه، هي وإن اعترضت في البداية على

تمرّد زوجها وإلحاحه في طلب الدفينة، لكنّها الآن أشدّ منه تطرّفًا في السعي للذّهب، يتخطّفها بريقُه، ويُطربها رنينُه الأخّاذ، فانْصاعت كالمسحورةِ لا ترى في الدّنيا ما يستحقّ الحياة إلّا لهذا العرض، ولا بدّ أن يتم، تتمثّل أحلامها كلّ يوم تطاردها حتّى في أحلامها التي اشتعلتْ بنيران الطمع، يكاد عقلها يطيرُ وهي تسمع حكاياتِ جايل المختلقة عن الكنوز، فما أنْ يجمعهما مجلس حتّى تسارع فتتّخذ مجلسَها إليه، ويبدأ صاحبنا في قصصه التي ينسجُها في براعة تفيض بالمبالغة والتّلفيق:

- في القرية الفُلانية والنّجع العلّاني فتح كنزٌ.. وكان فيه وفيه، وفلان وجدَ كنزًا كبيرًا ولكنّه لم يفتحه بعد أنْ عجز عن شراءِ البخور، الذي طلب للرصد، أو فلان الذي طلب منه الشّيخ ذبحَ ابنه؛ فالرصد يشترط دمَ ابنِ صاحب الدفين، تاهت رسميّة بين طوايا قصصِه المكذوبة، ولم تستطع الخروجَ من دوّامتها، اختفت منها نبرةُ الغضب والتشنّج، خفّت نبرتُها ولم تعد تحثّه على الذّهاب للعمل كما كان، فما ينتظرها على يد جايل والدفينة يستحقّ المعاناة والصبر.

كان عبدُ المحسن قد كشف وجهَه لعبد الرحيم عنْ نيّته، فقاد حملةَ تمرّد وعصيان وإنْ لم يعلنْها صراحة، لكنّ الرجل طمأنه بأنّ مبلغًا كبيرًا سيصله عمّا قريب، علاوة على صداقةٍ قوية نشبتْ بين سالم وعبد المحسن، تردّدَا سويًّا على المقهى في شيء مُلفتٍ للانتباه، رأى جايل في عبد المحسن الرجلَ المناسب الذي يمكن الاستفادة من

خبراته، بحُكْم الصلّة التي تربطه بهؤلاء القوم، جاهد ليكسب ثقته في مدّةٍ وجيزة، آنس صاحبنا إليه ونمَتْ بينهما أواصرُ ودّ، فقد هشّ لحديث جايل العذب وفكاهته التي لا تنقطع، كان عبد المحسن لا يزال على قناعةٍ باستحالة غدْر عبد الرحيم به، فهو يعلم أنّه من الذكاء بحيث لا يتورّط في فعلٍ مثل هذا، فهُم في غنًى عمّا يمكن أن يجرّه عليهم لو فتح فمَه بكلمة، فلا تزال جثثُ القتلى ممّن طمرتْهُم الدفينة تحتَ أنقاض بيت الشيخ إسماعيل، ونظرة من الحكومة في السّراديب تكشف المستور.

لم يتجرّأ عبدُ الرحيم على مواصلة حفْره، حتّى وإن كان همُّه الأكبر انتشال الجثث المدْفونة تحت الهدم، لقد حذّرهم الخواجة من مواصلة الحفر فلربّما انهار المنزل بالكامل فوقَ رؤوسهم، فلو حدث لانكشفتْ ألاعيبهم وأصبحَ الأمرُ جليًّا لا يقبل الشك، فيفقد عبدُ الرحيم وأولادُه، ويضيع كلّ شيء.

واصل عبدُ المحسن على فتراتٍ إرسالَ رسله، يستعجل النّقود التي وعد بها عبدُ الرحيم، بعد أنِ انقطع عنه بمشورةِ جايل، كان الرجل يمنّيه في كلّ مرّة غير أنّه شغل في مسألة مهمّةٍ تأخذ كلّ وقته، وعمّا قريب سيتحقّق مطلبه فلا يقلق ولا ينزعج.

لا تبيتُ القرية وتصبح إلّا على خبرٍ جديد، فلان يحفرُ تحت بيته، وفلان استقدَم شيخًا لفكّ الرّصد، وفلان عثر على جرّةٍ من الذّهب مصادفة وهو يحفر جدارًا جديدًا، حتّى الناس من فرْطِ هوَسِهم ربطوا

بين الموت والدّفينة، فقالوا: بأنّ الدفينة مرهونةٌ بموت أحد أفراد البيت، يختار مِن بين أهله، ويكون السيد والقائد فيهم، فهذه ضريبةُ الدفينة التي لا بدّ وأن تدفع.. حتّى رائحة البخور باتت تتصاعدُ علانية مع كلّ مساء، أصبح الأمر معتادًا، ولا سبيلَ لإخفائه.

لم يكنْ أمام جايل- والأيّامُ تتآكل منه بلا فائدة- من عقد شَراكةٍ مع أشخاص يثق فيهم، أو بالأحْرى تربطه بهم نفسُ المصالح، احتال على عبد المحسن بواسطة أبي خطوة ليشترك ثلاثتُهم في المسألة، فهو يعلم ما يمثّله الرجلُ ودورَه في جلب الشيخ المغربي بحكم عمله مع عبد الرحيم، أثارَ كلامُ جايل فضولَ عبد المحسن، فالرجل يردّد كلّ ليلة: إنّ ممرّ الدّفينة الأساسي موجودٌ تحت بيتي، كلّ الشواهد تشيرُ إليه، فحركةٌ غريبة تدبّ في البيت كلّ ليلة، الأنوارُ تنطفئ والمواعينُ تتناثر، والأبواب تطرق، والفاعلُ مجهول، لقد سألت وعلمتُ أنّه الرصد يلفتُ انتباه أصحاب البيت لوجود الكنز.

أخيرًا اطْمئنّ عبد المحسن لنيّة جايل، ثمّ نظر إليه وقال:

- نتوكّل على بركة الله.. واحْنا ونصيبنا.

قال جايل بعد أنْ مصّ كوبَ الشاي لآخر قطرة:

- نعم، وهل المساخيط حكرٌ على عبد الرحيم وحده! أليس من حقّ الجميع التشارك فيها؟ هذه دفينةُ القرية كلّها، والشاطر مَن يبحث له عن مسْلك، وأنا على يقين من أن الخبيث يعلمُ بأنّ فتحة الكنز عندي.

وأطلق ضحكةً كلّها ثقة وهو يحدج صاحبيْه بعينه، وغابة الجوزة وسحابة من دخانها الأبيض الكثيف تندفعُ على دفعاتٍ من فمه تدور حول المكان. رأى الرجلان في عين صاحبهم تصميمًا غريبًا، وإصرارًا يدفعهما لأنْ يفعلا ما بوسعهما للمزاحمة، مزاحمة تنتزعُ من قلبهما كلّ رهبةٍ من عبد الرحيم وعياله، لكنّ عبد المحسن تباطأ قليلًا وهو يفكر ثمّ أطلق من صدره زفرةً وقال في وجوم:

- نعم أتفقُ معك، ولكنّني أختلف معك في شيء يسير، فبحُكم عملي مع عبد الرحيم زمنًا طويلًا رأيتُ العجبَ العُجاب من أمر الرجل، فهو داهية لا يُستهان به، إنه صاحب خبرة وتجاربَ اكْتسبها من طول احتكاكه بالخواجات، يعلم جيدًا أين يحفر وكيف، ومقدار ما تحويه الدّفينة!.

اعتدلَ جايل وقال متباهيًا:

- وهل تشكّ في قدراتي يا صديقي، لقد قلت لك بأنّ الحارس أعطانا أمارات، ولعل في الجلبة التي تحدُث كلّ ليلة والفوضى والصّخبِ الذي يعمّ المكان؛ ما يبرهن، إنّ الرصد يريد أنْ ينبّهنا بضرورة استخراج الكنز بسرعة، فالوقتُ الذي سخّر فيه لحراسة المكان قد شارفَ على الانتهاء، وقد بطلت طلاسمُ الكهّان.

استغرب عبدُ المحسن لكلامه، أكمل صاحبُه في تباهٍ:

- نعم، لقد ورث والدي البيتَ عن أجداده، كنت وأنا صغيرٌ متمرّدًا، أصحو مبكرًا بعد صلاةِ الفجر أذهب لنخلةٍ كانت ملاصقةً لجدار بيتنا،

فضّلتُها عن بقية النخل لربطها اللذيذ، وفي يوم من الأيام ظهر لي في الظّلام ديكٌ كبير، لم أرَ مثيلًا له، كان في حجم خروف كبير، كان جسدُه مضيئًا بريشٍ لامع براق كالمصابيح بألوان ونقوش بديعة، وما أنْ شاهدتُه حتّى اندفعتُ نحوه في خفّةٍ وفضول، بعد أن أثارني هذا المخلوق العجيب، ظلّ الديكُ مُحافظًا على ثباته وتوهّجه، غير أنّه بدأ يتحرّك قليلًا قليلًا مبتعدًا عنّي، ثمّ يقف وينظرُ نحوي، وعندما أعاجله وأقترب منه يبتعدُ.. وهكذا، حتّى بدأ نورُ الصباح يلوح في الأفق، فما كان منّي إلّا أن انْقضضتُ عليه لإمساكه، ولكنّي فشلت، غير أنّ ريشة سقطت من جناحِه الأيمن، أمسكتها فإذا هي تتوهّج بين أصابعي كالجوهرة الثمينة، ولكني ألقيتها وتابعتُ ركضي خلف الدّيك الذي اختفى فجأة، فتذكّرت أمرَ الريشة ولكنني عدت ولم أجدْها وكأنّها تبخّرت.

ألقى أبو خطوة الصّينية من يده، وصرخَ منفعلًا حتّى نبّه الزبائن، قائلًا:

- طول عمرك وشّ فقْر، يا فقري يا بوز الفقر، هذا الدّيك حارسُ الكنز الكبير الموجود أسفلَ البيوت، وهو اختارَك كي تتبعه فيدلّك على فتحتِه السرّية، أمّا الريشة فلو مررتها على الحديد لتحوّل ذهبًا إبريزًا.

ثمّ انْهال عليه يرفسُه ويلكمُه، وقد تظاهر جايل بخيبةِ الأمل لتفويت فرصته، ظلّ عبد المحسن في صمته، غير مقتنع أصلًا بكلام

صاحبيه، وتمثيلهما السّخيف، ولكنه أدرك بأنّ القومَ أصابتهم حتمًا لوثةُ الدّفينة، فها هُم يختلقا الحكايات غير المقنعة، يمرّرانها وكأنّها حقيقة، فلربّما عوّضتهما عن الحرمان وزادتْ من حماسهما، ولعلّ في ترويج مثل هذه الأكاذيب ما يبثّ الثّقة في نفوسهما، ويقوّي عزيمتهما على مواصلة المشوار، لكنها على كلّ حالٍ مسألة تستحق إعادة النظر.

لم تكنْ قصص جايل إلّا امتدادًا لما بدأه مع رسميّة التي استهوتها رائحةُ الثراء، وتشبّعت بقصصها المزيّفة، فتبرّمت أشدّ ما يكون التبرّم، وضاعت على شفتيها عبارات الصّبر وكلمات التوكّل التي كانت تردّدها كلّ دقيقة، فلا همّ للمرأة سوى الذهب والمساخيط والقصر المَشيد والأكل والشرب والملابس الفاخرة، وحياتها التي ستقضيها في المدينة بين الأثرياء أمثالها، بعيدًا عن ازعاج الفلاحين وفقرهم، تنكّرت المرأة لحياتها وشرعتْ تضع كلّ يوم لبنةً في جدار حلمها الوردي، لكنّ ما أصابها أصاب كثيرين غيرها من أهل القرية ممّن حلموا بالثراء المريح.

ظلّ عبدُ المحسن متحفّزًا يخفي في نفسه ريبةً من غدر عبد الرحيم به، ولكنه لا يطلع أصحابَه على ما في نفسه؛ خشية أن يدبّ الخوف في قلبيهما فتضعف الهمم وتبور الأحلام التي تعاهدوا عليها، فهو يعلم مِن أمر صاحبه الغدر والخيانة وسوء الطبع، ولا محالة أنّ شرًّا ما سيلحق، أصبحت خطواتُه محسوبة، ظلّ يردّد على مسامع زوجته

كلّما خلا بها ما تعاهدَا عليه، أمّا عبد الرحيم فكان الغيظُ يشتدّ به، حاول كثيرًا استعادة رجله القديم، ولكنه فشلَ فلم يعدْ بينهما بقيّةُ ودّ، لكنْ ظلّ يمنّيه بوعوده كلّ حين حتّى ينتهي من إحكام تدبيره، يطوقه من كلّ جانب، شعر عبدُ المحسن بثقل الأيام مع تراخي الرجل وتلهّيه عنه، الآن تحقّق له من أنّ ضررًا سيلحقه ولا محالة، لكنّه لن يتنازل عمّا أضمر، فما كان من صاحبه إلّا أن أرسلَ إليه بنصف المبلغ المطلوب على أن يوافيه بالبقية في نهاية الشهر، لعلّ هذا الموعد كافٍ للخلاص من غريمِه والانتهاء من صداعه، لكنّ عبد المحسن فطِنٌ لا يُخدَع؛ فعزم أن يبوح لصاحبيْه بسرّه، وأوصاهما أنْ يُعلانه للملأ لو حصل له ما يسيء.

سارتِ الأيام تحملُ من الترقب والفزع الكثير، وتحمل من التدابير أكثر.

وفي ليلةٍ من الليالي باح الرجلُ بسرّه المدفون، قال في تردّد، وهو يسمح قطرات العرق المُتناثرة فوقَ جبينه:

- إنّ عبد الرحيم شيطانٌ رجيم، بل يفوقُه ضررًا، فلو اطّلع على ما أضْمرنا لأصابنا منْه الكثير، وفشلت كلّ مساعينا، فليمسك كلّ لسانَه حتّى يأذن الله.

غيرَ أنّهم اتّفقوا بالإجماع استعجال موعد التنفيذ، فالوقت ليس في صالحهم، ولا بدّ من جلبِ الشّيخ المغربي الذي يساعدهم في

استخراج الدفينة، اجتهدَ عبدُ المحسن حتّى وصل للشّخص المناسب، وبعيدًا عن أعين عبد الرحيم أخفاه.

غابَ عنهم أنّ الشّيخ منجي المغربي الذي استقدموه وفيٌّ لعبد الرحيم لأبعدِ حدّ، فعطايا عبد الرحيم كثيرة، كما أنّ وصايته على المكان تمنع الحفرَ إلّا بإذنه، وهو أحرص على كسْب رضاه واستثمار ما بينهما من صلة، فالرجلُ لن يضحّي بها لأجل عيون ثلّةٍ من المُعدَمين.

لم يكذّب صاحبُنا خبرًا حين أطّلع عبد الرحيم على سرّهما، فهو على وعي بأطماع أهل القرية ورغبتهم في الدفينة، ولكنه لم يتوقع أنْ تكون لهؤلاء كلّ هذه الرغبة حتّى أوشك زمامُ الأمر على التفلّت من يده، طلبَ من منجي توخّي الحذر فيجاريهم قدْرَ المستطاع، ويطلعه أوّلًا بأوّل على تحرّكاتهم، وقد كان.

جدّ منجي من أوّل يوم في تعطيلِ العمل واختلاق الصعاب، فكانت مطالبه غريبة ولا تنْقطع، وهذا سهلٌ على شخصٍ بحجم منجي، ضليع في عمله، هيّأ له عبدُ المحسن غرفةً في عزبة أبي الصّفا بعيدًا عن البلدة.

سبكَ منجي أصولَ اللعبة عليهم فلم تكن طلباتُه هي الغريبة، بل كان كلامه عنْ مقتنيات الدّفينة في غاية الغرابة، طارَ عقلُ جايل وأصحابه لكلامه، قال الشّيخ منجي، وهو يمرّر حبّات مسبحتِه الكهرمان الغليظة بسرعة:

- إنّه كنزٌ كبير يا رفاق، متنوّع الغرف، هنا غرفةٌ للذّهب، وهنا للمساخيط، وهنا للياقوت، وهناك التّبر، وتلك جرار الزّئبق الأحمر، هذا ما يهمّكم من أمر الدفينة، وما عداها فلا شأنَ لكم به.

حدقَ الثّلاثة فيه يستفزّهم الفضول، تسابقُ دقاتُ قلوبهم الدخانَ المنطلق من مجمرته المستقرّة أمامه، والتي ينثر فيها بخورَه بشكل عجيب، فتعلو أصواتُ طرقعة، ويلفّ الدّخان في المكان، أعاد منجي نظرَه يقلب في بلّورة كبيرة بين يديه، وهو يطمطم بكلمات غريبةٍ غير مفهومة، ويدُه لا تكفّ عن نثر حصواتٍ من لبان الذّكر فوق الجمر المشتعل، زمجرَ وهو يقلب في ورقةٍ قديمة متآكلة يقرأ منها بصوت خافت ويحدق في النار، ثمّ يرمي ببصره إليهما وقد اكفهرّ وجهه، ثمّ قال منفعلًا دفعةً واحدة:

- بعد أن تنزل إلى الدفينة وعلى الدّرج يمينك سترى الممرّ الطويل الذي امتلأ بالغرف، لا تنظرْ حولك أبدًا مهْما حصل، فغيرُ مسموح لك من الرصد إلّا بما أخبرتك به، في الغرفة الثالثة مساخيط كثيرةٌ منوّعة من الذهب والحجر هي لك، وفي الغرفة الرابعة والسّادسة والخامسة اجمَعْ ما شئت منها، ثمّ اصعدْ على أن ينزل غيرُك ليجمع هو الآخر، وهكذا بالتناوب؛ فالعزيمة معمولةٌ لأجل ثلاثِ مرّات، لا يمكن لشخص واحد أن ينزل مرّتين، أو أن يدخلَ حجرة غير ما أوصيت، وإلّا أغلق الباب وانطبقت الأرض عليه ولن يرى النّورَ ثانية، أمّا الأخير منكم فسيرى لحظةَ نزوله في منتصف الممرّ حجرةً

كبيرة تتوسّطها عصا غليظة مركونة في جانبها، وعباءة من الصّوف وزجاجة مملوءة بسائل شفّاف، فهذه الأشياء تخصّني أنا، والباقي لكم؛ هذا ما أريده أجرة عن عملي.. اتّفقنا؟

بهتَ القومُ من هول ما سمعوا، سال لعابُهم حتّى أغرق ذقونهم، تراقصت قلوبهم فرحًا، صرخَ جايل مُنتشيًا كالمجنون:

- فينك يا رسميّة تشوفي وتسمعي..

انشغلَ عبدُ المحسن فجأة، والتفت للشّيخ وقال:

- ولكنّك لم تخبرْنا عن طلبات الأسياد يا مولانا!!

قاطعَه منجي مُتظاهرًا، وقد أغمض عينيه وبدأ يترنّح كالمغشى عليه، ثمّ أشار بيده عاليًا، ومال برأسه وكأنّه يتسمّع كلامًا بعيدًا، ثمّ ابتسم في وجهه، وقال:

- أبشِرْ يا محسن.. أبشر؛ فرجلُنا من ملوك الجان يُهديكم السّلام ويقول: لا تقلقوا أبدًا، فهوَ لن يكلّفكم فوقَ طاقتكم، أحتاج أوقية من لبان السّمندح، وأوقية من بذور الضّناكي الأحمر، وعرق الخالوج، وثلاث ورقاتٍ من شجرة السّرنتح البري، ونصف أوقية من دم طاووسٍ شابّ، وجرام من عين المارد، ودرهم من طين الطابون الأصفر ومثله كندر..

التفتَ الثلاثة في استغرابٍ مُستنكرين طلباته، فهم لم يسمعوا قبلُ عن تلك الأصناف، مالَ جايل عليه، وقال مُتذاكيًا:

- نحن لا نعرف مِن أين تحضر تلك الأشياء، وأقترحُ أن تأخذ ثمنها وتتكفّل إحضارَها بمعرفتك يا مولانا.

نظرَ منجي بخبثٍ في وجهه، وهزّ رأسه، وقال بصوتٍ منخفض:

- لا تحملْ همًّا.. مقْضيّة إنْ شاء الله.. مدددددددددد...هووووو.

(٦)

نفّذ منجي اتفاقه مع عبد الرحيم بحذافيره، فكلّ ما يتحصّله من وراء هؤلاء المغفّلين حلالٌ عليه، شريطة أن يسايرهم في قصص مُختَلقة يضيع معها الوقت، بعدها يتبخّر من القرية في الوقتِ الذي يحدّده بنفسه. كان ذاك مدْعاةً لأن يماطل منجي، بل ويعربد في تسويفِه، فأرهق الرجالَ وأثقلهم بطلباتِه الغريبة التي استنزفت ما ادّخر عبد المحسن وأبو خطوة من سنين، لم يصرّح منجي بموعد الحفْر أبدًا، ولعلّ هذا ما كان يقلق رسمية وهي تسمعُ من جايل مُماطلة الشّيخ، فقد كانت تتلهّف لأخبار جديّة تداعب لواعج نفسها المتشوّقة للسماع بأنّ موعد الحفر قد اقترب.

لم يكسرْ جايل بخاطرها، فكان يعطي المرأة على فترات ما يرضيها بعد أن أصبحت له الكلمةُ العليا في البيت، يعيدُ على مسامعها حكايا من نسج خياله يماطلُ كلّما سألته، لكنه يعود في النهاية فيشفقُ عليها وهي تتقلّب على جمر الانتظار، فكلّما سمعت مقالته حزمت وسطها بالشّال وترقصُ وتصفق وتقفز في الهواء في جنون، لقد هوست المرأة، لا ترى في دنياها سوى الدّفينة، تفتّش في زوايا البيت تعبثُ بالأرض في هستيريا ولهفة قائلة:

- نامي.. نامي مكانك لا نريد إزعاجَك، فغدًا أو بعد غدٍ سنحفر ونحضرك يا وجه السّعد.. لقد طالَ الشّوق والانتظار، غدًا يعلن على بيت جايل الذي يناطح عبد الرحيم عزًّا وجاهًا.. وداعًا للفقر وداعًا.

انشغلَ بالُ أبي خطوة، يضرب أخماسًا في أسداس، يحاول أن يجدَ لكلام منجي تفسيرًا يقنعه، ليلَ نهار يتردّد كلامه في رأسه ليعود صدًى خاليَ الوفاض بقلبه، بخصوص ما سيحصل عليه منجي من المقْبرة، لماذا هذه الأشياء تحديدًا دون غيرها، قال ذات مرّة لعبد المحسن في مجلسِ سَمَر:

- برأيك.. ما حقيقةُ هذه المُقتنيات التي أخبر عنها منجي، وهل تفوق الذهبَ والمساخيط قيمة، ولماذا لا نتشارك معًا؟ لا أخْفيكَ سرًّا لقد بدأ الفأرُ يلعب في عبي مِن هذا الرجل الغامض، إنّه يخرج من مكانه ويغيب أوقاتًا طوال، أين يذهب؟ ومَن يقابل؟ علينا أن نتنبه لهذا الشّيخ من الآن.

أدركَ الشيخُ من كلام عبد المحسن أنّ أصحابه قد استولى عليهم هوسُ الدفينة حتّى لم يترك مكانًا لسواها، على الرّغم من قلقهم المفاجئ، ارتبك منجي مُتظاهرًا بالقلق بعد أن طلبَ من صاحبه الأمان كي يطلعه على سرّه، واتّفقا أن يناله من الحبّ جانب..

كان عبدُ المحسن ذكيًّا، يستطيع فهْمَ الحقيقة دون جهد، لعلّ عمله مع عبد الرحيم أكسبه بعضَ الخبرة، قلّب الكلام في باله، اقتربَ منه الشيخ وهمس بصوت منخفض متحسّسًا، وهو يتلفّت حوله:

- أمّا القارورة ففيها الماءُ المسحور الذي جلبه أحدُ الكهنة من معبدٍ بعيد، تنبع فيه عينُ ماء لساعةٍ واحدة في العام ثمّ تغيب، فمَن شرب منه قطرات قليلة لا يمرَضُ أبدًا، هو ماء الحياةِ، مَن أصابه عمّرَ طويلًا، وأمّا العصا فمَن يضرب بها الأرض تنشقّ من تحته ولو كانت جبلًا جلمودًا، أمّا زجاجة الكحل الصّغيرة فمَن اكتحل بها يرى في الظلام الحالك كما يرى في وَضَح النّهار، بل ويرى الجانّ والشياطين، وبخصوص العباءة الصوف فمَن لبسها يغيبُ عن الأنظار ولا يعملُ فيه سلاح، والبخور الموجود في العلبة الصدف فمن استنشقه يُعطى قوّة عشرين رجلًا من الأشداء، ها قدْ أطْلعتُك على السّر الكبير الذي ما بعدَه سرّ، ولولا ثقتي فيك ما كلّمتك، سوف أعقدُ اتّفاقًا بيننا.. نتقاسم المُقْتنيات سويًّا، ولكن حذارِ أن يعرف أصحابُك ما بيننا وإلّا فشل الترتيب؛ بل وقْضي علينا.

زادَ استغراب عبد المحسن وهو يسمع كلامه، فالرّجل أطْلعه على ما يأخذ العقل، فهو عليمٌ بصنعته، خبيرٌ لا يشقّ غباره، عندها أسلم نفسَه لمنجي الذي تلاعب بعقله وسرح بخيالِه في عوالمَ ورديّة، فانتزع منه يمينًا مؤكّدةً لا رجوع عنها، فكّر طويلًا فيما أخبره منجي، قال لنفسه: لهذه الأشياء عشّاقها ممّن يقدّرون قيمتها، سأبيعها وأقبضُ الثمن وأذهبُ بعيدًا بعيدًا، آه يا منجي يا وجْهَ السّعد.

نجحَ منجي- حتّى الآن- في حبْك خطّته التي رسمها مع عبد الرحيم، مرّرها على هؤلاء المغفّلين، أسقط العصفور في القفص على حدّ

قوله، والتفّ الحبلُ حول أعناقهم، وبعد قليل سيمسكُ عبد الرحيم بطرفِه، وما عليه إلّا أن يشدّه ليقضي عليهم، وينهي تمرّدهم.

جدّ عبدُ الرحيم في طلب القوم، إنّه ثعبانٌ عجوز، له ألفُ رأسٍ وألفُ ناب، له ألف تابع ينتظرون إشارةً منه فيزحفونَ ليحموا عرشَه، ويبسطوا سطوته، ويعزّزوا جبروته.

لم يعرفِ الزّمام رجلًا يماثله مكرًا وخداعًا وخبثًا، يملك على الناسِ مَسارب الأنفاس، منذُ أن ملك الجاهَ والثروة، ومنذ أن عرف طريقه الخواجة ماركو، وجلب معه مال قارون الذي أغرق عبد الرحيم، وصنع اسمًا مثل الطبل.

لكنّ المشكلة في عبد الرحيم؛ فهو لا ينسى مَن أساء إليه، ومسّ كبرياءه، مهْما طال الزّمن، حتمًا سيعلّمه الأدب.

ولعلّ مكانَه أهلّهُ لأن يكون وسيطًا مباشرًا وقويًّا، ما بين التجار وأصحاب البضاعة من أهل الزّمام، وفي أحيان كثيرة ما تتولّى عرباته نقلها في أيّ مكان وتسليمها تحت ضمانته، ومَن ذا يستطيع بيْعَ حجرٍ واحدٍ دونَ علمه؟ بهذا ضمن تحكّمه في هذا السلعة، وعرف الدّخلاءَ فيها، وفرض من الرقابة ما يضمن عدم الخروج عن طوعه.

اجتمعَ منجي بأصحابه الثّلاثة يعرض طلباته، بل هي طلباتُ الأسياد خدّام المكان كي يطاوعوه ويمكّنوه من هزيمة الرصد. وضع عبدُ المحسن مالَه الذي أخذه من عبد الرحيم تحتَ تصرّفه، أمّا أبو خطوة

فجاء بتحويشةِ العمر، ولوْلا أحلامه الدفينة وأمانيها ما فعلها، فقد ادّخر ماله لشراء بيتٍ جديد يسعُ أولاده الكثر، أمّا جايل فلا يملك إلّا داره التي ستحتضنُ الحفر فقد استقرّ في بطنها الكنز الكبير.

لم تبرحْ رسميّة دارها منذ أنْ علمت بموعد الحفر، تعلّلت لجاراتها بالتّعب مرّة، وبمشاغل البيت أخرى، وبذلك استطاعت تضليلَهم والتّخلصَ من أسئلتهم التي لا تنتهي.

حان الوقت، ودقت ساعة الصفر، جاءهم ذاتَ مساء يحمل مخْلاته العجيبة التي حشاها بأغراضٍ وأمتعة غريبة، لم يطلعْ عليها غيره، تفوحُ منها روائح مختلفة نفّاذة وكريهة، وضعَ بين يديه رقعةً من الجلد نُقشت عليها رسوم غير مفهومة، التقطها عبدُ المحسن من يدِه وحملق فيها، زمجر منجي وبرطم، وقال صارخًا بصوتٍ يشقّ الأسماع بعد أن أشرّ بيدِه، ورسم خطوطًا على الهواء:

- السّماح.. السّماح. العفو.. العفو.

ثمّ التقط الرّقعة والشّررُ يتطاير من عينيه، وعقّب زاجرًا:

- لقد وقعتَ في خطأ كبير يا مسكين، كدتَ تتسبّب في هلكتك، فلوْلا ستر الله لأحرق البيت بمَن فيه في غمضةِ عين، لقد تسبّبت في غضبِ كبير الخدّام، مَن قال لك أن تمسّ الرّقعة بيدك!!

وضعَ الرقعة في المخْلاة، ومدّ يدَه، والتقط مسبحتَه الخضراء يقلّب حبّاتها الكبار بين أصابعه بسرعة، وهو يوسوس نفسه ويوْشّر في

الأرض ويحملق في سقف المكان، وفجأة ابتسمَ وانفكّت عقدة جبينه، وقال مندفعًا:

- أبْشروا، لقد وافق كبيرُ الأسياد على المساعدة، لا بدّ وأن تحضر، وهذا الأسبوع سنبدأ في الحفْر يا أحبائي، عجّلوا بالطلبات، لقد وعدني كبيرُ الخدّام بأنّه سيُبطل عزيمة الرصد لمدّة معينة، تمكّننا من أخذ مصلحتنا.

قال أبو خطوة هامسًا:

- يبدو أنّ طلباتهم سوف تقسم وسطنا.

اندفعَ جايل قائلًا:

- نطلب منك أن تتوسّط لديهم كي يخففوا عنّا طلباتهم، فالحال كما ترى يا مولانا، وأنت سيدُ العارفين.

هبّ منجي واقفًا في مكانه، إلّا أنّ عبد المحسن طلب منه بإلحاح أن يغفر زلّته، طالبًا من صديقه أن يعتذر، إنّ للأسياد طلباتٍ ثانيةً غير البخور، فأمرُ البخور سأتولّاه بمعرفتي بعدَ أن تعطوني النقود، لكنّ سيدَ الخدّام يخبركم بأنّ الكنز كبير جدًّا، وأنه سيعمي أعينَ أهل القرية جميعًا عنه، ولن يسمح لجنسٍ مخلوقٍ بالاقتراب منه مهما كان، علاوة على هذا فإنّه سيطوي الأرضَ كي تطلع الدفينة أمتارًا لأعلى، فيوفّر عليكم مشقة الحفر ويضمنُ لكم السرعة، ماذا قلتم!؟

بشّت وجوهُ الصّحب، وقالوا في صوتٍ واحد:

- أجل.. أجل.. نحن طوعُ أمر الأسياد، ما هي الطلبات؟

قال صاحبهم:

- إنّه يريد فتاةً بكر لم ينفض ختمها.

نظرَ جايل، وقال باستغرابٍ وقد تغيّرت ملامحه، وخفق قلبه:

- وماذا نفعل بهذه البكْر يا مولانا؟ وما علاقتها بالدّفينة وعملنا فيها!؟

نظرَ منجي في خبث، وقال:

- لقد قلتُ لك أيّها الأبله، إنّ الكنز كبير، وسيئول إليكم وحدكم، وإنّ السيد الكبير يحتاج الفتاة لنفسه، فدمُ بكارتها عوضًا عن دم إنسانٍ مذبوح، وأنت بين أحدِ الخيارين.

تصايح القومُ يعلّلونَ رفضهم، وإن استقرّ في أنفسهم أنّ الغنيمة تستحقّ أن تبذل فيها الأرواح، لقد بنى كلّ واحدٍ منهم قصورَ آماله وانتهى الأمر، ولا مردّ عنها ولو تكلّف حياته، بل وألفُ حياة مع حياته، لكنّهم فكّروا من أين لهم بفتاةٍ بكرٍ تفي بالغرض؟، هذا ما انتهوا إليه.

وبعد أنْ غاب احتقانُهم، وأيقن الشيخُ أنّ طلبه مُجاب، قال بتعالٍ:

- لا بدّ أن تعجّلوا، وإلّا ضاع الترتيب.

لم يردّوا جوابًا، ولكنْ غابَ كلّ واحدٍ منهم في تفكير عميق، يجول في بساتين أوهامه فيرى نفسَه وقد تسيّد على القرية، بل وأهل الزّمام كلّه، ويرى عبد الرحيم وأمثاله أقزامًا يطلبون رضاه، وقبل أن يفيقوا من غفوتهم، قال منجي:

- لقد أحضرتُ لكم شخصًا ليقرأ عليه الطّلسم، سيمسك بيده ورقة العزيمة، سيكون حاضرًا ساعة الحفر، حاجباه مقرونة كما طلب الأسياد، وسنعطيه أجرَه فهو يعمل معي منذُ زمن.

هاجَ أبو خطوة مُنفعلًا:

- قلتُ لك يا مولانا قبلَ سابق، لا نريد أغرابًا معنا، فلو اطّلع عبد الرحيم علينا لفشلت المهمّة.

ردّ منجي بغيظ:

- هذا عملي، وهذه طلباتُ الأسياد، ولن تجدي عزيمتي بدونه، سوف أعزّم عليه ثمّ أنثرُ فوقَ رأسه من رماد البخور المُحترق، عندها سيغيبُ عن الوعي ويحلّ فيه نفس كبير الخدّام، فيبطل عملَ الرصد ويدلّكم على الحُجَر السّرية، سيكون فوق الحفر مباشرة كي لا تطبق الأرضُ عليكم.. هل فهمت؟

أمّا الفتاة البكر فستكون هديةً لكبير الأسياد، اطمئنّوا سنخدّرها، ولن تشعر بشيء البتّة حتّى ننتهي من عملنا.

ومعَ المساء، عاد جايل يحمل لرسميّة البشارة، كانت المرأة قلقةً تجلس على جمرة من نار، تجوب البيتَ تفرُك يديها تنتظر قدومَه كي يخبرها بما يجري بعيدًا عنها، فالأمر طال ولا بدّ من وضع حدٍّ لهذا الوقت المستنْزَف، متى يتمّ الحفر؟ متى تخرج الدفينة؟ متى تلمس الذّهب ويرنّ في أذنيها؟

جلسَ جايل على المصطبة في هدوء، سارعت فأحضرتْ كوبًا من الشاي وهي تحدق فيه، توشك أن تفتح فمَه فتخرج كلماتِه عنوة، تقول في نفسها: ما لهذا الرّجل يتصرف اليومَ وكأنّه لوحٌ من الثلج؟

أخذَ رشفةً من الشاي وأرسل طرفه ناحيتها وقال في سكينة:

- ماذا سنفعل؟ لقد اشترط منجي شروطًا معقّدة، لقد تفاقمت الأزمةُ ولا بدّ من حل، من أينَ لنا بفتاةٍ بكرٍ هديةِ الأسياد؟ تبًّا لمنحي ورصده وأسياده الملاعين.

تنحنحَ فجأة، وعدل ياقة جلبابه، وتلفّت حوله وكأنّه استشعر خطورة ما قال، لقد أخبر منجي أنّ الأسياد معه في البيت، وكذا الرّصد، يتابعون حركته ويسمعون دبّة النملة.

قالت رسميّة وهي مكفهرّة الوجه:

- هل مِن عوضٍ عن الفتاة؟

ردّ عليها:

- فإنْ كان ولا بدّ، فذبيحةٌ من بني الإنسان، يقطر دمُها فوق بوابة الدفينة حتّى يلعقه الرّصد، وتعمل فيه العزيمة والبخور، ذكرًا لم يبلغ الحلم، هل رأيت مصيبةً أكبر من هذه؟!

زحفتِ المرأة على ركبتيها على التراب حتّى اقتربتْ منه، وضعت يدَها على رجلٍ وردّدت في ثباتٍ وتحدّ:

- لا بدّ أن تجدَ حلًّا، أنا لا أحبّ اليأس، ولا أقنع بالفشل، إنّها الدفينة أيّها الخبل.. مهْما كانت الطلبات لا بدّ أن تحضر.

سادَ صمتٌ طويل غاب كلاهما عن وعْيه لمدّة لم تحسب من عمر الزمن، أكملت رسميّة في تململ:

- ألا يوجد في الأمر سَعَة؟ هل تُشترط البكرُ تحديدًا، أم أيّ أنثى تفي بالغرض والسلام؟

مطّ بوزه مستغربًا، وبلهجةٍ يشوبها السّخط قال وهو يتفحّص ملامحها، بعد أن رأى إصرارًا في عين المرأة، ظنّ في بادئ أمره بأنّ للمرأة مشورة يتوجّب سماعها، فلربما جاءت بما غاب عنهم، قال مستفهمًا:

- ولوْ فرضنا تلافي هذا الشّرط، فمَن التي ترضى بأداء هذه المهمّة وهي تعلم ما فيها من مَخاطر، وهل هناك امرأةٌ عاقلة تقدّم نفسها قربانًا للجان، إلّا أن تكون منزوعة العقل خالية المشاعر؟!

عاجلتْه متحفّزة:

- إنْ كان ولا بدّ فأنا أستطيعُ القيام بهذا الدور خيرَ قيام، ولماذا يخرج سرُّنا للغريب؟ قد يشاركنا خيرَ الكنز أو يوشي بنَا، ولو افترضنا وجودَه فلن نسلمَ من طمعه، أخبر المغربي بهذا المقترح، على أن تجعلَ لي نصيبًا مقابل مهمّتي.

ذهلَ جايل فوْرَ سماعه مقترحَ رسمية، لم يخطرْ بباله أن تصاب المرأة بدائها لهذا الحدّ، الذي يجعلها تُقدم على هذا الفعل المُشين. كيف لا تحسب لشرفِها حسابًا؟ كيف تلقي به تحتَ النّعال رخيصًا وضيعًا؟! كيف سيواجه الناسَ لو عرفوا، وما أسهل إفشاء الأسرار

في هذه القرية اللّعينة؟ بل كيف سيحيا معها تحتَ سقف واحد وهذا العارُ يطارده، لقد علمه والدُه صغيرًا: إنّ الفلاح في الريف لا يملك بعدَ رضا ربه إلّا فأسه وعِرْضه، وهل ستصبح رسميّة قانعة بعدَ الذي أقدمت عليه سعيدة مرتاحة الضمير؟!

آه يا جايل.. يا للمسكين! إنّ الفضيحة آتيةٌ لا ريبَ فيها، هل سيصمت صاحباه لو نقذت هذه المجنونةُ فعلتها، أم تراها الشّرارة التي ستحرق الكلّ!؟ لطفكَ يا رب.

انتفضَ فجأة، وهو ينفضُ عن رأسه هذه الوساوس، تقدّم منها، وأمسك بتلابيبها وطوّق رقبتها بأصابعه وهو يصرخ هائجًا:

- إيّاك ثمّ إيّاك أن تتلفظي بحرفٍ واحد من هذا الكلام ثانية، وإلّا فصلتُ رأسَك عن جسدك بفأسي، لقد غشى الطمع عينيك فلا ترينَ إلّا المال والثروة.

تركَها تتلوّى على الأرض تستجمعُ أنفاسَها المهدرة، وهي لا تصدّق أن جايل أفلتها بعد أنْ رأت الموتَ بعينها، ولمسته بيدِها، مرّرت يدَها فوق رقبتها في صمت، لملمت شعرها المُنتفش وابتلعت ريقها وجلست بجانب الجدار مُكتفية بنظرات الرّيبة والفزع، وكأنها ترى الرّجلَ لأوّل مرّة.

اندفع صاحبُنا إلى الدّرب ليجمعه لقاء وصاحبيه، وهو مصمّم على إنهاء الموضوع بأسرع وقت، لكنْ غاب عن ثلاثتهم أنّ منجي في الطرف المقابل يُطلع عبدَ الرحيم على تحرّكاتهم أوّلًا بأوّل، والذي

انتظر طويلًا يرصد ويراقب ويخطط كي ينقضّ عليهم فيشتّتهم، ولكنّه تريّث حتّى تستوي الطبخة ويدخل الفأرُ المصيدة، على حدّ قوله.

وهكذا سارت الأمور، واللهُ وحده الخبيرُ بالعواقب.

(٧)

لم يغبْ عبدُ المحسن عن بال عبد الرحيم طرفة عين، فهو طريدُه منذ اليوم الذي أعلن فيه العصيان، لكنّه فضّل التّريثَ والمهادنة، ففيهما- ولا شكّ- انتزاعٌ للرّهبة من قلب الفريسة، ارتضى- على مضضٍ- أن يرسل إليه بباقي المبْلغ المتّفق عليه، وفوق هذا أعطاه من عهودِ الأمان والطّمأنينة ما ذكّره بأيّامه الخوالي في كنف صاحبِ الجاه، السيد المطاع الثّري كبير الزّمام، جاءه البشيرُ يفضي إليه رغبةَ سيده القديم في العودة إلى عمله، فمكانه لم.. ولنْ يملأه سواه، فهو ابنُ البيت وربيبه، وعليه أن يقرّر ويعيد حساباته.

على ما يبدو أنّ الكلام أحدث مفعولَه في عقل الرجل، فانصاعَ قليلًا، وإن تظاهر بالسخط على أفعال سيّده، ولكنّه الحذر وتخوّف الخيانة دفعته أن يحسب لكلّ خطوة حسابها، خاصّة وأنّه يتعامل مع لصٍّ وضيع لا يعرف للود طريقًا.

أخيرًا، وضع المبلغ بين يدي الشيخ منجي، راجيًا إيّاه أن يسرع في عمله فلقد نفد صبرُه ومَن معه، ولم يعد في مقدورهم التحمّل.

عاجلَه منجي باستخفافٍ متسائلًا عن مصير هديّة الأسياد، البنت البكر أو الدم، عاجله بأنّ العقدة سيجدون لها حلًّا؛ فلا يقلق، سيخطفون صبيًّا صغيرًا من عزبة السوق المُجاورة، فتى يتيم يعيش مع جدّته العجوز في خُصّ على مشارف القرية، وهُم من الغجر

الذين لا يعرف لهم عائلة ولا نسبٌ في الزمام، هو الصيد الأنسب لتنفيذ المهمّة بسلام.

وفي اليوم التّالي، كان الخبرُ بين يدي عبد الرحيم كغيره مِن أخبارهم، حمله منجي على جناح السّرعة غبطًا مسرورًا، لم يتمالك عبدُ الرحيم نفسَه فاندفع ضاحكًا بصوته المبحوح وهو يضربُ الأرض بعصاه الأبانوس، التفت لأولاده وقال في تشفٍّ:

- ألمْ أقلْ لكم يا أولاد! الصيدُ يقترب وسيدخل الشّبك برجله، إنّني أنتظر بفارغ الصبر، فالحبلُ في يدي، وآنَ لي أن أشدّه، فلن أرحم كلبًا من هؤلاء.

دارتْ فكرةُ خطف الصبي بين الأصدقاء منذُ أيام، لكنهم لم يبتّوا فيها برأي، وبعد تشاور واقتناع من جايل، أكّد على أنّه الكارت الوحيد الذي بأيديهم، ولا بدّ من استعجاله، جاهد نفسَه طويلًا كي يقنع الرفاق، فلا يزال كلامُ رسمية يرنّ في رأسه، كلما نظر في عيني الرّجلين تراءت له صورةُ المرأة المخبولة والطّمع يشعّ من عينيها، آه لو عرفا بما قالته رسميّة لقضى عمرَه ذليلًا، ليتَه فتكَ بها فاستراح من عارها، لكنّه أفلح في قطع الطريق، وبذلك تنفّس الصّعداء فقد طويت فكرتُها وماتت للأبد.

لكنّ ما شغلهم وحيّر عقولهم، الطّريقةُ التي يستدرجون بها الصبيّ من جوار جدّته العجوز، فهو لا يفارق الخصّ إلّا لممًا.

طلبَ أبو خطوة من صاحبيه وقتًا لدراسة الخطّة بعناية، انبرى جايل يهوّن على صاحبيه خطورة الموضوع، فمقصودُه أن يخطف الصبي بأيّ طريقة.. المهمّ أن ينتهي الأمرُ بسلام، وبالفعل.. وبعدَ أيام استطاعت رسميّة استدراجَ الفتى بعيدًا عن الخص، كان جايل مختبئًا في حقل ذرةٍ قريب، أمسك به وأوثقه ورماهُ بداخل جوال، وانطلق به.

استقرّ الصبيُّ في غرفةٍ بعيدة في البيت يأكل ويشرب، بعد أنْ أوهموه أنّ رجلًا كريمًا سيمرّ ويعطيه ما يكفيه وجدّته، وقد طلبَ منه أن يأتي به بهذه الكيفية، انْصاع الفتى أخيرًا ولم يتمنّع أو يقاوم؛ فالمُغريات الكثيرة التي أحاطوه بها؛ فاكهة.. وحلوى منوعة كافية لإزاحة الخوف والرهبة من قلبه، وقد كان.

أخبر جايل أصحابَه بالعملية، وآن الأوان ليبدأ الحفر، فكلّ شيء جاهز؛ النقود مع منجي، والصبي في عهدتهم.. فلمَ التّأخير؟!

لم يخطرْ ببال منجي ما وصل إليه الثلاثة، فالقوم أقدموا بكلّ جرأة وبلا تخوف يحبكونَ خطتّهم، فلا تراجع عنها، ولا بدّ من إكمالها مهما تكبّدوا من مشاق، رأى صاحبنا أطماعهم فأدرك الأولى بأن القوم سقطوا في يده صيدًا سهلًا، وهذه مهارة النصّاب الذي يستشعر ضحيّته، ويتعامل معها تبعًا لأطماعها.

كان الوباءُ قد استشرى ليعمّ أغلب بيوت القرية، دبّ الطمع في قلوب الرجال الذين وجدوا في الحفر وتتبّع الدفائن طريقًا سهلًا

للثراء، وتناثرت الحكايات عن فلان وعلّان الذين بدأوا في الحفر، وجدّوا في استقدام شيخ عارفٍ بضروب السّحر وتسخير الجان وتتبّع الرصد، اختلط الحقّ بالباطل، والصدق بالكذب، وتضاربت أقاويلُ الفلاحين فسبقت أمانيهم الحد، فانقلبوا بقدرةِ قادرٍ من الكدّ والتّعب والسعي وراء لقمة العيش بشرف وأمانة، إلى مسوخ تلهث وراءَ الثّراء والمال. جنّ الرجالُ والنساء، ومنّى الشيوخُ أنفسَهم أنْ يبتسم لهم الحظُّ في أواخر أعمارهم، ليعيشوا حياةَ النعيم والهناء يسبحون في بحار العزّ، ويرفلونَ في أثوابِ الجاه، تمامًا كفلان الفلاني الذي انْشقّت له الأرض عن ذهبها، أحاديث خرافة جرتْ على الحنوك، ولاكتها الألسن.

منّى منجي نفسَه أن ينتهي من مُضايقات أولئك المجانين ومطالبهم فيأمر عبدُ الرحيم بفراره، لكنّ الأمر لم يصدر بعد.

وبعدَ قليل، حدّد منجي ليلة الحفر، ومع عقارب الثانية ليلًا سيبدأ العمل، حدّد لهم العمق اللّازم كي يبدأ منه سريانُ العزيمة ويشتعل البخور، وأن ينتظروه كي يكمل ما عليه.

كانت رسميّة قد جهزت ما لذّ وطاب؛ طعامًا شهيًّا يكفي الرجال، بعثت أولادها عند أبيها ليخلوا، كانت أنفاسُها تتلاحق سريعةً على غير العادة، خفقان لم تعهده.. أيا ترى خيرٌ أم شرّ! قالت وهي تضع يدَها على قلبها تثبّته بصوتٍ واثق: لعلّه خير.. أكيد خيرٌ.. بيننا وبين أحلامنا فركةُ كعب.. هانت يا دهب.

وبينما الجميع منهمك في عمله، طرق الباب طرقات قويّة، استغربوا من شدّتها، حسبوه منجي، لكنّ منجي لا يطرق مثلَ هذا الطرق، هرولت رسميّة لتفتح، وما أن فتح حتّى اندفعَ عساكرُ النّقطة للداخل، ومِن ورائهم الضّابط الذي طلب تفتيش كلّ رقعة في البيت، عثروا على الحفرةِ كما عثروا على الصّبي الصغير مقيّدًا وقد جهّزوه قربانًا للجن.

كلّ الدّلائل تشير إلى أنّها جريمة مكتملة الأركان، اقتيد الرجالُ إلى النقطة ومنها إلى المركز والنيابة لاستكمال التحقيقات.

طلبَ عبدُ المحسن إحضارَ منجي، فهو الوحيد الذي يعلم بأنّ وجود الصبي شيء، والحفر عن الدّفينة شيء آخر، لكنْ خاب ظنّه بعد أن علم بهروب الدّجال تاركًا كافة التّفاصيل في خطابٍ أرسله لرجال الشرطة الذين تحرّكوا على ضوئه، انْهاروا تمامًا لمّا عرفوا بأنّه دجّال ساقه عبدُ الرحيم في طريقهم، فأعماهم الطّمع وأغراهم الثراء ليندفعوا بلا رويّة فيتقصّوا حقيقته، انتابتهم الخيبةُ، وغشيتهم الكآبة والألمُ بعد تبدّد أحلامهم.

لم تكنْ رسمية أفضلَ منهم حالًا، أغشي عليها مرّات ومرّات وهي ترى بأمّ عينها حلمها وقد صارَ سرابًا ممتدًّا في عرض الدّار، أين الذهب؟ أين المساخيط؟ أين القصر والخدم والحشم؟ أين الوجاهة والمنصب؟ كلّ شيء صار زوالًا، انقضى ولن يعود أبدًا.

اعترف- أخيرًا- الرجالُ بجُرمهم بعد أن حاصرهم رجالُ الشرطة بالتّهم، فلا مجال للنّكران..

يا لحسرة رسميّة.. وأساها!

تجوب زوايا البيت وهي تضربُ بفأسِها، تحفر ليلَ نهار، انتفش شَعْرها، واحمرّت عيناها من السّهر، وتحوّلت إلى كائنٍ غريب، تهزي بأمانيها، تردّد وهي تحفر: ها قد اقتربتُ من الدفينة.. عند الصباح سأعثر على فتحة السرداب، تعال يا جايل لا تقلق يا حبيبي.. أنا سيدة القرية الوحيدة.. مَن تأتمر بأمرها.. أنا صاحبة القصر والخدم والحشم.

وكلّما داهمها التعبُ خرجت إلى الشّارع تصيح بصوت عال، تعلن للناس بأنها اقتربت من الدّفينة، ستجدُها مهما طال الزمن، وأنّ جايل سيعود لينعمَا سويًّا بحياة الرغد.

رقّ والدُها لحالها البائس فجَدّ في طلبها لتكونَ في رعايته متكفّلًا بأولادها، لكن ثورة المرأةِ لم تكن لتهدأ أبدًا. مسكينة.. تبخّرت أحلامُها في غمضة عين، حتّى جايل حلّاق الحمير فارقها، وربما لا يعود.

أصبحت جسدًا بلا روح، تولول طوالَ الليل، تخمش الأرضُ بأظافرها.

حزنَ والدُها لحزنها، لكنّه البطرُ الذي خلق من رسميّة القنوعة التي ترضى بما قسمه اللهُ كائنًا لا همّ له إلّا المال، فأسلمها لمصيرٍ مجهول، صحاري مسالكها وعرة، غرست في وحْل.

ثُرى.. لو عادت بها الأيّامُ لعهدها الأوّل هل سيكون لبريق الذّهب أثرٌ في عينيها؟! هل سيكونُ لأحلام الثروة مكانٌ في نفسها؟! هل ستتعطّش له كما كانت؟ أم ستقنع راضية بمقدور الله، تحيا بين زوج يكدّ.. وأبناءٍ تطعمهم من حلال، وهي ترى بسمتَهم رقراقة تتلألأ بها وجوهُهم البريئة.

لم ينقضِ الشرُّ من القرية بانطواءِ ورقةٍ من كتاب الطمع، وهذا حالُ الناس في قريتي، فقد بعثرت الأيامُ أوراقًا من كتاب الأماني تناثرت فاستقرّت في قلب كلّ لاهث، لا يستمع إلّا لوسوسة الشيطان الذي ينشر غوايته بالمجان بين أهلها الطيبين.

لم يكن عبدُ الرحيم ليقنع بمآلِ الثلاثة الذين تجرّأوا، وظاهروا في تحدّيه، تفلتوا من قبضته ولكنّ مصيرهم كما كان، فكّر مليًّا في أن يقطع الطريقَ أمام تسلل مَن تسوّل له نفسُه عصيانه، أشار خليفتُه في الشّر؛ سالم:

- لا بدّ من عملٍ جبّار يسمع صداه في المجاورة كلها، يتلهى فيه الناس، بل والحكومة أيضًا، وتعمى عيونهم عنّا.

كان رجالُ المباحث لا همّ لهم في القرية إلّا تعقب سرّ الدفينة، تخفّى رجالُهم خلف هويّات مزيفة، فتراهم في هيئات مختلفة من باعةٍ جائلين، وحرفيّين ومتسوّلين وضاربي الوَدَع وكاشفي البخت.

فأحاديثُ الدفينة تجوب الشوارعَ بلا حياء ولا تحرّج، كشف وجه النّاس فلم يعدْ سرًّا يخشى أو ذنبًا يتوارى، وكذلك تغيّرت أحوالُ

الناس وتبدّلت طباعهم، فهجروا ما ألفوه وانْساقوا خلف وافدٍ جديد، لا يعرف عن القيم شيئًا.

كان وباءُ الدفينة يتفشّى، فبعد أن كان حلمًا ورديًّا أصبح واقعًا قبله الناسُ بتساهل، فها هو أبو ستة ابن حلمي الجمّال قد عادَ من ليبيا، وأوّل عهدِه بالقرية بعد مَغيب لسنوات؛ أن استوطنَ بيتَ جدّه المهجور يحفر بطنَه، متّخذًا صلاح ابن جمالات الدّاية شريكًا له، بعد أنْ أشاع بين الفلاحين أنّه عمل لفترةٍ طويلة مع الخواجات عاملًا في الأقصر، ينقّب عن كنوز الفراعنة، وآنَ له أن يُستَفاد من خبراته. انحدرتِ الأوضاعُ في القريةِ انحدارًا خطيرًا وغيرَ مسبوق، هرولَ الناس من خلفِ سراب الدّفينة بلا وعي ولا تريث، لا يهمّ أغلبهم الوسيلةَ طالما كانت المحصّلةُ حفناتِ الذّهب والجعارين وجِرار التّبر والمساخيط، غابت العقولُ، وتشوّش الفكر، وتلاشى المنطق.

تمرّد القومُ على كلّ شيء، فتعمّدوا نكرانه، لم يسلم ماضيهم الجميلُ من تلك الهجمة الشّرسة، فجحدوا ميراثَ أجدادهم، سادت نغمةٌ ممجوجة، يتردّد على الأفواه: وما يربطنا بأيّام الفقر والعَوَز والمرض، لكلّ زمان عوائده، ولكن زمان ظروفه.. الماضي ولى ولن يعود.

أرادوا إخمادَ صوت الماضي بلا رجعة، ولعلّ الدّائرة تدورُ على النساء في القرية، فخياراتُ الطّلاق أو الزّواج الثاني تفرضُ نفسها، علا هذا الصوتُ، ووجَدَ مَن يؤيّده لا لشيءٍ اللّهم إلّا نكايةً في الفقر،

وغالبًا في الرّيف ما تكون المرأةُ هي الضّحية التي تتحمّل وزرَ الجميع، وتؤدّي الثمن.

لم يسأل أحدٌ نفسَه: وما ذنبُ المسكينة التي غُدر بها، حتّى يُوكَل لحمها وتُلقى عظامها، ألم تصبر، ألم تتحمّل جفوة الأيام ونكدَ اللّيالي، ألم تقضِ حياتها منزويةً عن متع الدنيا تتجرّع المرّ لا حيلة لها إلّا الصبر؟!

هكذا إذًا ردُّ الجميل!..

قدِم عطا الجارحي من سفره، تغرّب في العراق سبعَ سنين كاملة، قضاها يضع القرشَ على القرش، يحلمُ باليوم الذي يرجع القرية مرفوعَ الرأس، جديرًا بزوجته نبويّة..

نبويّة ابنة خاله عبد المقصود المزيّن الذي زوّجها إيّاه دون مهْر، بعد أن شفعت أمّ عطا عندَه، فأعطاه إيّاها وهو منشرحُ الصّدر مُكتفيًا بأنّه ابن أخته الوحيدة.. غدًا يصبح زيتُنا في دقيقِنا.. وعلشان عظْم التُّرْبة.. وستر البنات مفيش أحْسَن منّه.. والأهل لبعضيها.. تلك حججه وإن ارتضاها مُكْرهًا بعد أنْ بارت نبويّة وتخطّاها الخطّاب لدمامة وجهها، كما أنها تكبرُ عطا بستّ سنوات.

رجعَ صاحبنا القرية يحمل بين جنبيهِ آمالًا عراضًا، يتحسّس محفظته المنتفخة بورق النّقد الأجنبي الأخضر والأزرق، يحمل بين يديه جهازَ الكاسيت المستورد تنبعث منه الأغاني الجميلة التي يتجمّع من حولها الصّبيان في الطرقات وعلى المصطبة، انساق

وراءَ رغبةِ بناته كي يقتني لهم بيتًا جديدًا عِوضًا عن بيتهم المتهدّم الضيق، قالت له ابنته الكبرى سنيّة:

- وهل في البلد حدّ زيّك يا أبويا.. دا أنتَ سيدِ الناس، رأسك برأس كبيرها، والدنيا مظاهر، والحمدُ لله ربنا عطاك من وسع.. وسّع علينا خصيمك النبي.

لم يكذّب خبرًا، فابْتَنى بيتًا واسعًا جميلًا على أطراف البلدة، تحاكى عنه الناس، وفي أحاديثهم انشرح صدرُه الذي امتلأ حقدًا على ماضيه المُظلم، وها هو يضع اللبنة الأولى في جدار التمرّد.

لم يجدْ عطا من اليوم الأوّل لمقدِمه لهفةً في قلبه تجاه نبوية، على عكس ما تعوّد الرّجال الذين اغتربوا عن نسائهم، وحُرموا صفوَ وصالهم، لم تعدْ نبويّة تطاق، لا ينظر إليها بالمرّة حتّى حين تضعُ له طعامه أو حتّى أو تعدّ الماء السّاخن الذي يعتبر شفرة يتقنها القرويّ، ويعتبرها جائزة يطفئ معها وهَجَ الشّوق بينه وبين حليلته.

غيّب الهمُّ والحاجةُ من وجهها ماءَ الشّباب، فبدتْ يابسةً كجريد النخل، عاملها بجفوة وتعالٍ، حتّى مع سلامِه الأوّل، مدّ يده إليها بفتور، شعرت المرأةُ بالانكسار، حدّثت نفسها تخترعُ أسبابًا: ربّما مشغولٌ بأمر البيت.. ربما.. ربما.. ربما.

تبرّر له أفعالَه، تغالط نفسَها، ودمعُها ينحدرُ ساخنًا فوقَ خديها اليابسين..

انتظرت نبويّة حضورَه على نار الشوق، جمرات مُلتهبة في صدرها لابن عمّتها وحبيبها ورفيق صباها ووالدِ بناتها، رجُلها الذي صانت عرْضَه في سفره، وحفظت كرامتَه حتّى وإن لعقتِ التّراب..

تعدّ الأيامَ لتجتمع به فتلقي بنفسها بين ذراعيه، تودّع مع قُبُلاته وبين يديْه وفوق صدره أيامَ الوحشة، وتطوي عنها آلامَها التي لا تُطاق.

لكنْ ما حيلتها! وماذا تصنعُ وهي تراه يبتعدُ عنها ويهجر عشَّه، ويصدُّ متعمّدًا عن الاجتماع بها بلا سبب، تمادى الرجلُ فهجر البيتَ ليلَ نهار، يخرج منذ الصباح فلا يخبرُها بوجْهتِه، ومَن تكون حتّى يُشْركها في حياته، لقد خرجتْ منها كغيرها من ذكرى الماضي ولنْ تعود ثانية، هذا عهدٌ قطعَه على نفسه، وها هو يوفّيه..

تردّد على المقهى، وهو المكانُ الوحيد الذي يجتمع عليه أصحابُ الوجاهة من كِبراء البلد، تسلّلت أحاديثُ الكنز وأخبارُ الدفينة إلى سمعِه دون قصد، فهي أحاديثُ الساعة التي يتحاكى بها الناس، وهكذا الناس في قريتنا.

في بادئ أمره لم يلق للأمر بالًا، ويومًا بعد يومٍ بدأ يُقلّب الأمر في رأسه، شاور بعضَ أصحابه، تمنّى أن يُحالفه الحظّ، فما المانع من خوض التجربة؟!

وقفَ يومًا أمام المرآة يعدلُ هندامَه، يفتلُ شاربَه الرفيع، يمرّر يده فوق وجهه النحيف الأصفر، يمسح سوالفه الطوال، ابتسم ساخرًا ثمّ لوى بوزه وقال:

- نبوية.. نبوية.. ها.. ها!! هذا السّريرُ لا ترقد عليه غيرُ مُهْرةٍ عربية أصيلة. يستحقّها خيّالٌ مثلي.

الآن خرجت نبويّةُ من حسابات الرّجل الطموح، لم تعدِ السّيدة التي تناسبه في هذه المرحلة بتاتًا، هو أحوجُ ما يكون إلى فتاةٍ فاتنة مدلّلة، حسناء صغيرة تنجب له الولدَ الذي سيحملُ اسمَه، ويجد معها اللذّة وراحة البال.

تبعثُه نبويّة بنظرها أيْنما تحرّك، لكنّها نظراتٌ مكلومة تغرقه بها في صمتٍ وعتب، تكاد الكلمةُ تتدحرج من فمها، فيسحبها عنوةً في تنهّد، حارت المرأة، وتلاعبت الوساوسُ بها، تقول لنفسها متمنّية: هل راجع نفسَه وتعقّل؟ هل عادَ إليه صوابه؟ هل سيعود لعشّه، لحبيبته نبويّة التي ما عشقت الحياةَ إلّا لأجله؟

انفردَ بها ذات مساءٍ على مضض، ووجهُه مكفهرّ، وشفتاه ترتعشان، وفورةٌ تكاد تختلع صدرَه، تحامَلَ على نفسه، وقال بعد صمتٍ طويل:

- اسمعي يا بتّ الناس.. أنا صبرت كتير، ودا علشان العِشرة والمعروف والقرابة والبنات، أنا بصراحة هاتجوّز.. من حقّي يكون عندي عيّل يشيل اسمي مِن بعدي، ووعد عليّا إنّ اللّي أنتِ فيه

وبناتك هيضلّ زيّ ما هو، مش هينقص منه خردلة.. أنا هابني للمَرَة الجديدة بيت لوحْديها.

ثمّ قام ونفضَ جلبابه في افتعال، وأشاح بوجهه، واندفع في الشارع، ولم يرجع إلّا قبيل الفجر.

ترقرقتْ دمعةٌ ضخمة من عينها، انحدرتْ من مآقيها الذّابلة فوق خدِّها اليابس، أزالتها المرأةُ سريعًا في كبرياء، نظرتْ لصورته المعلّقة في برواز خشبيّ كبير فوق الحائط، وقالت في تألّم: لكَ الحقّ.. ما أنتَ بقيت من الأكابر.. والقرش جرى في إيدك.. من حقّك يا ابن عمّتي تشوف نفسَك مع صبيّة حلوة تقضّي حياتك معاها غير نبويّة الكركوبة!!.

وانكفأت المسكينةُ تسحّ من دمعها السّاخن، وتشكو إلى الله حالَها، حتّى داهمتها خيوطُ الصّباح.

في نفس الوقت، تعدّدت اللقاءات بين عبد الرحيم وأولاده، وفي يوم من الأيام ابتسمَ سالمُ في وجه والده، وقال بثبات:

- لقد فكّرتُ في فكرة لو طبّقت كما يجب لكفتْنا هذا الصداع.

تهلّل وجهُ والده، فهو يثقُ في شيطان ابنه، نظر إليه، وقال:

- عجّل يا بني هاتِ ما عندك.

اقتربَ سالم من وجه أبيه حتّى اختلطت أنفاسُ الأبالسة، وقال:

- نحرق بيوتَ القرية.

ألقى عبدُ الرحيم كوبَ الشّاي من يده، وتلفّت حوله في فزع، وصاح بصوت خافت ينفجر الغيظُ في عروقه:

- هل جُننت!!؟ إنّ عملًا كهذا ولا شكّ سيجلب لنا من المتاعب ما لا طاقة لنا به، هو مقامرةٌ غير محمودةِ العاقبة، و.....

ابتسمَ سالم ابتسامةً غلّفها بشيء من السخرية مقاطعًا والده المضطرب:

- إذًا افتضح أمرنا.. ولكنّ التّرتيب الذي أعدّ لن يخرّ المياه، الخطّة مضمونة؛ سنشعل النيرانَ في أجران القمح القريبة من البيوت، وكذا بعض البيوت التي تكدّست أسطحها بالبوصِ وحطب القطن، ستكون نارًا عظيمة تنتقل من بيتٍ لبيت، ومن حقل لحقل، عندها سننشرُ رجالنا يذيعون على مسامع الفلاحين أنّ الجان غضب عليهم بسبب الاستمرار في الحفْر، وإيذائهم بالعزائم المجهدة والبخور، فاضطرّوا إلى معاقبتهم فأشعلوا النار، وإذا لم يتوقف الحفر ويعود الناس عن ما في رؤوسهم؛ فالعقابُ سيكون أشدّ تنكيلًا.. ولن يفرق الجان بين ظالمٍ ومظلوم، بذا يستشعر الناسُ الخطر، وتحدثُ بلبلة بينهم وفتنة يخشى كلّ واحدٍ منهم وشايةَ جاره.

بهتَ الشّيطان الأكبر من خليفتِه، وازداد إكبارًا له، وقال بصوت أجشّ لا يخلو من إعجاب:

- عفارم.. عفارم يا واد يا سالم، معلّم كبير، وشُغل محترفين، لكن نقذ صحّ المرّة دي مش زيّ المرّات اللّي فاتت، مفهوم؟

وبالفعل تخيّر سالم من رجاله مَن يثق به، فوزّع عليهم الأدوار، ونثر في أيديهم حفنةً مِن عطاياه ألهبت حماستهم.

انطلقَ المردةُ لمُرادِ سيّدهم ليفتحوا صفحةً جديدة من صفحات الشّر التي تهدّد مخادع الفطرة في القرية الهانئة، وتبدأ حلقةٌ جديدة من حلقات الصراع بين القناعة والطمع، والتي لا تنتهي في ريفنا الآمن حتّى قيام الساعة....

تمت

المؤلف في سطور

الاسم : محمد فيض خالد

الجنسية : مصري

مكان الميلاد : محافظة المنيا

تاريخ الميلاد:١/١/١٩٧٨م

البريد الاليكتروني: Mjawad١٢٠@gmail.com

المؤهلات العلمية

ليسانس دار العلوم ١٩٩٩م

الخبرات العملية

محرر صحفي ، كاتب وروائي

الإنتاج الأدبي

رواية الأفندي (حكاية ريفية) دار البشير للثقافة والعلوم

رواية نوجا (صدى قلب) منصة كتبنا

رواية (المحتال) الهيئة المصرية العامة للكتاب

المجموعة القصصية ليالي بحر يوسف (أوراق ريفية)

تحت الطبع

رواية سبع الليل

رواية أحلام من الجنوب

•العديد من المقالات الأدبية بالصحف والمواقع الأدبية والإخبارية